

الْعَمَلُ

عناصر الموضوع

٣٨٨	مفهوم العمل
٣٨٩	العمل في الاستعمال القرآني
٣٩٠	الأنفاذ ذات الصلة
٣٩٤	اقتران العمل الصالح بالإيمان
٣٩٨	نسبة العمل إلى الله
٣٩٩	إحاطة الله بعمل الخلق
٤٠٨	أنواع الأعمال وشروطها
٤٢٣	الحث على العمل الصالح
٤٣٣	أثر العمل في الدنيا
٤٤٣	أثر العمل في الآخرة

مفهوم العمل

أولاً: المعنى اللغوي:

أصل مادة (عمل) تدل على كل فعل يفعل^(١).
قال الخليل: عمل عملاً فهو عاملٌ، واعتمل: عمل لنفسه^(٢).
والعمالة: أجر ما عمل.
والمعاملة: مصدر من قولك: عاملته، وأنا أعامله معاملة.
والعملة: القوم يعملون بأيديهم ضرباً من العمل، حفراً، أو طياً أو نحوه^(٣).
والخلاصة: أن العمل: المهنة والفعل، والجمع أعمال.

ثانياً: المعنى الاصطلاحي:

لا يختلف معنى العمل في الاصطلاح عن معناه في اللغة.
وقد عرفه المناوي بقوله: العمل: كل فعل من الحيوان بقصد، فهو أخص من الفعل؛ لأن الفعل قد ينسب إلى الحيوان الذي يقع منه فعل بغير قصد، وقد ينسب إلى الجماد، والعمل قلما ينسب إلى ذلك^(٤).
وقال الكفوي: العمل: المهنة والفعل، والعمل يعم أفعال القلوب والجوارح^(٥).
وقال الصغاني: تركيب الفعل يدل على إحداث شيء من العمل وغيره، فهذا يدل على أن الفعل أعم من العمل^(٦).
وفي معجم الفقهاء قال: العمل: بالتحريك مصدر عمل، جمع أعمال، كل فعل كان بقصد وفكر، سواء كان من أفعال القلوب كالنية، أم من أفعال الجوارح كالصلاة، والعملة: بضم العين أو كسرهما، وسكون الميم، وفتح اللام: ما يعطاه الأجير أجره عمله^(٧).

(١) مقاييس اللغة ٤/ ١٤٥.

(٢) العين ٢/ ١٥٣.

(٣) انظر: العين، الفراهيدي ٢/ ١٥٤، مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ١٤٦.

(٤) التوقيف على مهمات التعاريف ص ٢٤٧.

(٥) الكليات ص ٦١٦.

(٦) انظر: المصدر السابق ص ٦١٦.

(٧) معجم لغة الفقهاء، قلعي ص ٣٢٢.

العمل في الاستعمال القرآني

وردت مادة (عمل) في القرآن الكريم (٣٤٥) مرة^(١).
والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٩٤	﴿مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٦٢]
الفعل المضارع	١٦٦	﴿وَمَا اللَّهُ يَنْفَعُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٧٤]
فعل الأمر	١١	﴿أَنْ أَعْمَلْ سَيِّئَاتٍ وَقَدْ رَفِئْتُ فِي السَّرِّ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [سبأ: ١١]
الاسم	٦١	﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [هود: ٤٦]
اسم فاعل	١٣	﴿وَالْعَمَلِينَ عَلَيْهِ﴾ [التوبة: ٦٠]

وجاء العمل في الاستعمال القرآني بمعناه اللغوي الدال على الفعل والمهنة.
وقد نوع القرآن الكريم في استعمال المفردات الدالة على ذات المعنى، ومن تلك
المفردات المستعملة: فعل، وكسب، وسعى، وغيرها.
وقد أطلق القرآن الكريم (العمل) على الأعمال الصالحة والسيئة، نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ
الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [البقرة: ٢٧٧]، وقوله تعالى: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾
[النساء: ١٢٣]^(٢).

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٨٢٨.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٥٨٧، بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي ١٠١ / ٤.

الألفاظ ذات الصلة

١ الكسب:

الكسب لغةً:

تدل مادة (كسب) على ابتغاء وطلب وإصابة، فالكسب من ذلك، ويقال: كسب أهله خيراً، وكسبت الرجل مالا فكسبه^(١).

الكسب اصطلاحاً:

لا يختلف معنى الكسب في الاصطلاح عن معناه في اللغة. وقد عرفه المناوي بقوله: الكسب: ما يجري من الفعل والقول والعمل والآثار على إحسان قوة عليه^(٢).

الصلة بين العمل والكسب:

العمل والكسب لفظان متقاربان في المعنى في اللغة؛ لذا لا نجد أهل اللغة يفرقون بينهما كثيراً، بل يعرفون أحدهما بالآخر. قال الجوهري: الكدح، والعمل، والسعي، والخدش، والكسب^(٣). بمعنى واحد. ويقول ابن فارس: السعي هو: العمل والكسب^(٤).

٢ الفعل:

الفعل لغةً:

تدل مادة (فعل) على إحداث شيء من عمل وغيره، من ذلك: فعلت كذا أفعله فعلاً، وكانت من فلان فعلة حسنة أو قبيحة، والفعال جمع فعل، والفعال، بفتح الفاء: الكرم، وما يفعل من حسن^(٥).

الفعل اصطلاحاً:

لا يختلف معنى الفعل في الاصطلاح عن معناه في اللغة. وقد عرفه الجرجاني بقوله: الفعل كون الشيء مؤثراً في غيره، كالقاطع ما دام قاطعاً، وفي

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ١٧٩/٥.

(٢) التوقيف على مهمات التعاريف ص ٢٨١.

(٣) الصحاح، الجوهري ٣٩٨/١.

(٤) مجمل اللغة، ابن فارس ص ٤٦١.

(٥) مقاييس اللغة، ابن فارس ٥١١/٤.

اصطلاح النحاة: ما دل على معنى في نفسه مقترن بأحد الأزمنة الثلاثة^(١).

وعرفه الفيروزآبادي الفعل بأنه: كناية عن كل عمل، متعد أو غيره^(٢).

وقال الراغب: الفعل: التأثير من جهة مؤثر، وهو عام لما كان بإجادة أو غير إجادة، ولما كان بعلم أو غير علم، وقصد أو غير قصد؛ ولما كان من الإنسان والحيوان والجمادات، والعمل مثله، والصنع أخص منهما^(٣).

الصلة بين العمل والفعل:

قال الراغب: العمل كل فعل يصدر من الحيوان بقصده، فهو أخص من الفعل؛ لأن الفعل قد ينسب إلى الحيوانات التي يقع منها فعل بغير قصد، وقد ينسب إلى الجمادات، والعمل قلما ينسب إلى ذلك، ولم يستعمل في الحيوانات إلا في قولهم: الإبل والبقر العوامل^(٤).

٣ الصنع

الصنع لغة:

تدل مادة (صنع) على عمل الشيء، ويقال: امرأة صناع، ورجل صنع، إذا كانا حاذقين فيما يصنعانه^(٥). والصنيعة: ما اصطنعت من خير، والتصنع: حسن السميت^(٦).

الصنع اصطلاحاً:

لا يختلف معنى الصنع في الاصطلاح عن معناه في اللغة.

وقد عرفه الكفوي بقوله: الصناعة: كل عمل مارسه الرجل، سواء كان استدلالياً، أو غيره، حتى صار كالحرفة له، فإنه يسمى صناعة، وقيل: كل عمل لا يسمى صناعة حتى يتمكن فيه، ويتدرب، وينسب إليه.

وقيل: الصناعة «بالفتح» العمل، والصناعة قد تطلق على ملكة يقتدر بها على استعمال المصنوعات على وجه البصيرة لتحصيل غرض من الأغراض بحسب الإمكان. والصناعة «بالفتح»: تستعمل في المحسوسات، وبالكسر في المعاني، وقيل: بالكسر

(١) التعريفات ص ١٦٨.

(٢) بصائر ذوي التمييز ٢٠١/٤.

(٣) المفردات ص ٦٤٠.

(٤) المفردات ص ٥٨٧.

(٥) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١٧٢/٢، أشعار النساء، المرزباني ص ٩٠.

(٦) مقاييس اللغة، ابن فارس ٣١٣/٣.

حرفة الصانع، وقيل: هي أخص من الحرفة؛ لأنها تحتاج في حصولها إلى المزاولة^(١).
 الصلة بين الصنع والعمل:

قال الراغب: الصنع: إجادة الفعل، فكل صنع فعلٌ، وليس كل فعل صنعًا، ولا ينسب إلى الحيوانات والجمادات، كما ينسب إليها الفعل.
 وقال الكفوي: الإبداع، والاختراع، والصنع، والخلق، والإيجاد، والإحداث والفعل، والتكوين، والجعل: ألفاظ متقاربة المعاني^(٢).

٤ السعي:

السعي لغةً:

السعي: الكسب، وكل عمل من خير أو شر سعيٌّ، وفي التنزيل: ﴿لَتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا سَعَىٰ﴾ [طه: ١٥]^(٣).

السعي اصطلاحًا:

لا يختلف معنى السعي في الاصطلاح عن معناه في اللغة.
 وعرف الكفوي السعي بأنه: الإسراع في المشي إذا انصرف عنك، وذهب مسرعًا، وسعى، كـ «رعى قصد وعمل ومشى وعدا»، والسعي إذا كان بمعنى المضي والجري يتعدى بـ «إلى» نحو: ﴿فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩] وإذا كان بمعنى العمل يتعدى باللام، كقوله: ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ [الإسراء: ١٩]^(٤).

الصلة بين السعي والعمل:

السعي والعمل لفظان متقاربان في المعنى، قال الخليل: السعي: عدوٌ ليس بشديد، وكل عمل من خير أو شر فهو السعي، يقولون: السعي: العمل، أي: الكسب^(٥).

٥ الشغل:

الشغل لغةً:

تدل مادة (شغل) على خلاف الفراغ، تقول: شغلت فلانًا فأنا شاغله، وهو مشغول، وشغلت عنك بكذا، على لفظ ما لم يسم فاعله، قالوا: ولا يقال: أشغلت، ويقال: شغل

(١) الكليات ص ٥٤٤.

(٢) الكليات ص ٢٩.

(٣) المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٢/ ٢٢١.

(٤) الكليات ص ٥٠٩.

(٥) العين ٢/ ٢٠٢.

شاغل، وجمع الشغل أشغال، وقد جاء عنهم: اشتغل فلان بالشيء، وهو مشغل^(١).
الشغل اصطلاحاً:

لا يختلف معنى الشغل في الاصطلاح عن معناه في اللغة.
وقال الراغب: الشغل: العارض الذي يذهل الإنسان، قال عز وجل: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ
الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكِهِونَ﴾ [يس: ٥٥]^(٢).
الصلة بين الشغل والعمل:

لم يستعمل الشغل بمعنى العمل إلا في اللغة الدارجة العامية، فقد جاء في تكملة المعاجم
العربية قوله: ويستعمل الشغل عند المولدين بمعنى العمل.
إلا أن هناك علاقة بين اللفظين، من حيث أن الشغل هي الحالة التي يكون عليها العامل
أي عمل، يقال: هو في شغل، أي: ضد الفراغ.
٦ الكدح:

الكدح لغة:

تدل مادة (كدح) على تأثير في شيء، يقال: كَدَحَهُ وَكَدَّحَهُ، إذا خدشه، ومن هذا القياس:
كدح إذا كسب، يكدح كدحاً فهو كادح، قال الله عز وجل: ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسُنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ
كَدْحًا فَلْيَقِهِ﴾ [الانشقاق: ٦]. أي: كاسب^(٣).
الكدح اصطلاحاً:

عرفه الكفوي بقوله: الكدح: العمل والسعي والكد والكسب، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ
كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَلْيَقِهِ﴾ [الانشقاق: ٦] أي: ساع إلى لقاء جزائه، ويقال: هو يكدح ويكتدح،
أي: يكتسب^(٤).

الصلة بين الكدح والعمل:

بين الكدح والعمل تقارب في المعنى، ويزيد الكدح في الدلالة على الشدة في العمل،
والتعب والعناء.

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ١٩٥.

(٢) المفردات ص ٤٥٧.

(٣) مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ١٦٧.

(٤) الكليات ص ٧٧٣.

اقتران العمل الصالح بالإيمان

قرن الله تعالى في القرآن الكريم بين العمل الصالح والإيمان في كثير من الآيات، قال تعالى: ﴿آمِنُوا وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥] جاء هذا الاقتران - بهذه العبارة - في تسع وأربعين آية.

وجعل الإيمان في آيات أخر شرطاً لقبول العمل، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٤] وقال: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧].

وهذا الاقتران بين العمل الصالح والإيمان في القرآن له حكم عديدة، منها:

١. بيان أهمية الإيمان في قبول العمل، وأهمية العمل أيضًا في حصول الإيمان.

فهما قرناء؛ إذ لا تنفع الأعمال بدون إيمان، ولا يكون إيمان بلا أعمال تدل عليه. ففي هذا تنبيه لطيف جدًا إلى منزلة الأعمال الصالحة مع إيمان القلب، وأن في ذكرها معه إشارة إلى أنه لا يكفي بإيمان القلب؛ ولعل ذلك راجع إلى أن الأعمال من دلائل الإيمان الظاهرة؛ وأنها لازمة له، فكلما وجد الإيمان فلا بد أن يوجد العمل

معه^(١).

٢. التأكيد على أنه لا يحصل الإيمان الشرعي إلا باجتماع الإيمان والعمل، ولا يكفي واحد من هذه الأمور، بل لا بد من الإتيان بها جميعًا.

وهذا ما اتفق عليه السلف رضوان الله عليهم، قال الإمام الشافعي رحمه الله: «وكان الإجماع من الصحابة والتابعين من بعدهم، وممن أدركناهم يقولون: إن الإيمان قول وعمل ونية، لا يجزئ واحد من الثلاثة إلا بالآخر»^(٢).

وقال ابن عبد البر رحمه الله: «أجمع أهل الفقه والحديث على أن الإيمان قول وعمل، ولا عمل إلا بنية، والإيمان عندهم يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية، والطاعات كلها عندهم تسمى إيمانًا»^(٣).

٣. بيان التلازم بينهما، وشرطية الأعمال في وجود الإيمان، وشرطية الإيمان في قبول الأعمال.

فجميع الأعمال الصالحة التي شرعها الله على لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم إذا تأسست على الإيمان كان السعي مشكورًا، مقبولًا مضاعفًا، لا يضيع منه مثقال ذرة.

(١) انظر: موقف ابن تيمية من الأشاعرة، عبدالرحمن المحمود ٣/ ١٣٦٩.

(٢) الإيمان، ابن تيمية ص ١٩٦.

(٣) التمهيد ٩/ ٢٣٨.

إنما هو مصادفة عابرة؛ لأنه غير مرتبط بمنهج مرسوم، ولا موصول بناموس مطرد، وإن هو إلا شهوة أو نزوة غير موصولة بالباعث الأصيل للعمل الصالح في هذا الوجود، وهو الإيمان بالله يرضى عن العمل الصالح لأنه وسيلة البناء في هذا الكون، ووسيلة الكمال الذي قدره الله لهذه الحياة، فهو حركة ذات غاية مرتبطة بغاية الحياة ومصيرها، لا فلتة عابرة، ولا نزوة عارضة، ولا رمية بغير هدف، ولا اتجاهها معزولاً عن اتجاه الكون وناموسه الكبير^(١).

فإذا فقد العمل الإيمان فلو استغرق العامل ليله ونهاره فإنه غير مقبول، قال تعالى: ﴿وَقَدْ مَنَّاَ عَلَىٰ مَنَاسِكُومَ لَنُكَفِّرَنَّهُمْ وَلَنُجْزِيََنَّهُمْ﴾ [الفرقان: ٢٣].

ذلك أنه لم يقم على الإيمان الذي يصل القلب بالله، والذي يجعل العمل الصالح منهجاً مرسومًا، وأصلًا قاصدًا، لا خبط عشواء، ولا نزوة طارئة، ولا حركة مبتورة، لا قصد لها ولا غاية، فلا قيمة لعمل مفرد لا يتصل بمنهج، ولا فائدة لحركة مفردة ليست حلقة من سلسلة ذات هدف معلوم، وهكذا تعدم أعمال أولئك المشركين، تعدم إعدامًا يصوره التعبير القرآني تلك الصورة الحسية المتخيلة: ﴿وَقَدْ مَنَّاَ عَلَىٰ مَنَاسِكُومَ لَنُكَفِّرَنَّهُمْ وَلَنُجْزِيََنَّهُمْ﴾ [الفرقان: ٢٣].

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٣٩٨.

هذا هو قانون العمل والجزاء، لا جحود ولا كفران للعمل الصالح، متى قام على قاعدة الإيمان، وهو مكتوب عند الله لا يضيع منه شيء، ولا يغيب.

فلا بد من الإيمان لتكون للعمل الصالح قيمته، بل ليثبت للعمل الصالح وجوده، ولا بد من العمل الصالح لتكون للإيمان ثمرته، بل ليثبت للإيمان حقيقته.

إن الإيمان هو قاعدة الحياة؛ لأنه الصلة الحقيقية بين الإنسان وهذا الوجود، والرابطة التي تشد الوجود بما فيه ومن فيه إلى خالقه الواحد، وترده إلى الناموس الواحد الذي ارتضاه، ولا بد من القاعدة ليقوم البناء، والعمل الصالح هو هذا البناء، فهو منهار من أساسه ما لم يقم على قاعدته.

والعمل الصالح هو ثمرة الإيمان التي تثبت وجوده وحيويته في الضمير، والإسلام بالذات عقيدة متحركة متى تم وجودها في الضمير تحولت إلى عمل صالح هو الصورة الظاهرة للإيمان المضمّر، والثمرة البانعة للجذور الممتدة في الأعماق.

ومن ثم يقرن القرآن دائمًا بين الإيمان والعمل الصالح كلما ذكر العمل والجزاء، فلا جزاء على إيمان عاطل خامد لا يعمل ولا يثمر، ولا على عمل منقطع لا يقوم على الإيمان.

والعمل الطيب الذي لا يصدر عن إيمان

وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝١٣٠ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝١٣١ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا ۝١٣٢ ذَٰلِكَ جزَاؤُهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا ءَايَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ۝١٣٣﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٦].

فهم لما فقدوا الإيمان، وأحلوا محلهم الكفر بالله وآياته حبطت أعمالهم، قال تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكَتَ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥] ولهذا كانت الردة عن الإيمان تحبط جميع الأعمال الصالحة، كما أن الدخول في الإسلام والإيمان يجب ما قبله من السيئات وإن عظمت، فالتوبة من الذنوب المنافية للإيمان، والقادحة فيه، والمنقصة له تجب ما قبلها، قال تعالى مبيِّنًا صفات عباده الصالحين: ^(١) ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۝١٨ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ۝١٩ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَبْدِلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۝٢٠﴾ [الفرقان: ٦٨-٧٠].

والمقصود: أن القرآن دائمًا يقرن بين الأعمال والإيمان؛ وذلك لبيان أنه لا بد

في الإيمان من العمل خلافًا للمرجئة^(٢)؛ وليبان شرطية وجود الإيمان لقبول العمل، والغالب أن يتقدم ذكر الإيمان، ثم يليه ذكر العمل الصالح، وقد يذكر الله في القرآن العمل، ثم يذكر بعده الإيمان، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلُمًا وَلَا هَضْمًا ۝١١٣﴾ [طه: ١١٢].

وقد يفرد أحدهما بالذكر، ويدخل معه الآخر، كما قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠] والمراد: العمل الصالح المنبعث على أساس الإيمان، يرفعه الله تعالى، ويقبله. وكما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَآتَقَوْا لِمُثُوبَةٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٣].

أفردها هنا الإيمان، فدخل معه العمل. والحاصل: أن الإيمان إذا أطلق دخلت معه الأعمال الصالحة المأمور بها، وأن العمل إذا أطلق دخل معه الإيمان، وقد يقرنا معًا، فيكون المراد بالإيمان ما في القلب، والعمل ما في الجوارح.

وهذا يدل على أن مجرد الإيمان لا يكفي، فلا بد من العمل؛ والعمل وحده بدون إيمان لا يقبل؛ ولهذا قرن الله بينهما في أكثر من سبعين آية من آيات القرآن الكريم.

(٢) انظر: الملل والنحل، الشهرستاني ١/١٤١، الإيمان، ابن تيمية ص ١٤٥، الاعتصام، الشاطبي ٣/٣٦٤.

(١) أركان الإيمان، الشهود ص ٢٣٩-٢٤١.

أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾ [البقرة: ٨٢].

قال ابن كثير^(٢) في قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: وعملوا الصالحات من العمل الموافق للشرعية، فهم من أهل الجنة، وهذا المقام شبيه بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الصَّكْتِ مَنْ يَعْمَلْ سُوًّا يُحْزِئْهُ وَلَا يُجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [١١٣] وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١١٤﴾ [النساء: ١٢٣-١٢٤].

وهذا الجمع بين الأمرين هو سبيل المؤمنين المهتدين، وإهمالهما، أو إهمال أحدهما هو طريق أهل الضلال؛ كما أن الجمع بين العلم والعمل هو الطريق المأمور به، المخالف لطريق المغضوب عليهم، والضالين.

قال ابن كثير: وللفرق بين الطريقتين لتجنب كل منهما؛ فإن طريقة أهل الإيمان مشتملة على العلم بالحق والعمل به، واليهود فقدوا العمل، والنصارى فقدوا العلم؛ ولهذا كان الغضب لليهود، والضلال للنصارى؛ لأن من علم وترك استحق الغضب، بخلاف من لم يعلم، والنصارى لما كانوا قاصدين شيئاً لكنهم لا يهتدون إلى طريقه؛ لأنهم لم يأتوا الأمر من بابه، وهو اتباع الرسول الحق ضلوا، وكل من اليهود والنصارى ضال مغضوب عليه، لكن أخص أوصاف اليهود الغضب، كما قال فيهم: ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٦٠] وأخص أوصاف النصارى الضلال، كما قال: ﴿قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَصْلُوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧]^(١) وهكذا القول في الجمع بين الإيمان والعمل.

ولهذا جعل الله تعالى لمن أتى بالوصفين: «الإيمان والعمل» الجنة، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

(٢) المصدر السابق ١/ ٢٠٨.

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١٤١.

نسبة العمل إلى الله

جاء نسبة العمل إلى الله في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا﴾ [يس: ٧١] ونسبة الفعل إليه سبحانه وتعالى في القرآن أكثر، فقد جاء في آيات كثيرة أنه يفعل ما يشاء، وفعال لما يريد، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٤٠].

وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج: ١٨].

وقال: ﴿لَا يَسْتَلْ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

وقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧].

فقوله: ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾ أي: مما فعلته وصنعت أيدينا.

وقال البيضاوي: ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾ أي: مما تولينا إحداثه، ولم يقدر على إحداثه غيرنا، وذكر الأيدي وإسناد العمل إليها استعارة، تفيد مبالغة في الاختصاص، والتفرد بالإحداث^(١).

ومما يدل على أن ذلك من باب الاستعارة التمثيلية أن الأنعام تخلق ولا تعمل؛ ولكنه شبه اختصاصه بالخلق والتكوين بمن يعمل أمراً بيديه، ويصنعه

بنفسه، واستعار لفظ «العمل» للخلق بطريق الاستعارة التمثيلية^(٢).

والمقصود: أن الله تعالى وصف نفسه بأنه يعمل، قال جل وعلا: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا﴾ [يس: ٧١].
ووصف نفسه بالفعل الذي هو العمل، ووصف خلقه بالعمل، قال: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

وبين العمل والعمل من المناقاة كما بين الذات والذات^(٣).

(٢) انظر: صفوة التفاسير، الصابوني ٢٣/٣.
(٣) العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير ٣٦٩/٣.

(١) أنوار التنزيل، البيضاوي ٢٧٣/٤.

من مخالفة أمره ونهيه؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي: إنه تعالى بصير بأعمال العباد، لا يغفل عن شيء، ولا يخفى عليه شيء، فيجازي عليها^(٣). وأخبر الله تعالى في القرآن أيضًا أنه خير بأعمال عباده.

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٤].

وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ٩٤].

وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ يَمَّا يَصْنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠].

وكان هذه الجملة: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ جاءت تعليلية، تحمل الوعد والوعيد؛ إذ علم الله بأعمال العباد صالحها وفاسدها يستلزم الجزاء عليها، فمتى كانت صالحة كان الجزاء حسنًا، وفي هذا وعده، ومتى كانت فاسدة كان الجزاء سوءًا، وفي هذا وعيده^(٤).

وأخبر الله تعالى أيضًا في القرآن الكريم أنه عليم بأعمال عباده، فقال: ﴿إِنِّي يَمَّا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١].

وقال: ﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٢٨].

فهو ﴿عَلِيمٌ﴾ بأعمال عباده من خير

إحاطة الله بعمل الخلق

أخبر الله تعالى في كتابه الكريم أنه محيط بأعمال خلقه، لا يخفى عليه من أعمالهم شيء، ومما يدل على ذلك: ١. اقتران عمل الإنسان بأسماء الله.

فقد أخبر الله تعالى في القرآن أنه بصير بأعمال العباد، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ١١٠].

وقال: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ يَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٩٦].

وقال: ﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٦٥].

وقال: ﴿إِنَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [هود: ١١٢].

والبصر هنا بمعنى العلم؛ ويمكن أن يكون بمعنى الرؤية؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم: (لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه)^(١).

فأثبت لله بصراء؛ لكن تفسيره بالعلم أعم^(٢).

وفي الآية تحذير من المخالفة، فإذا كان الله بصيرًا بأعمال عباده فليحذروا

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب في قوله عليه السلام: (إن الله لا ينام)، ١٦١/١، رقم ١٧٩.

(٢) تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، الفاتحة البقرة ١/٣١٢.

(٣) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ١٢/١٦٧.

(٤) أيسر التفاسير، الجزائري ٤/٢٤٠.

وشر، وسيجزئهم على ذلك أتم الجزاء^(١).
وفق علمه وإطلاعه على أعمالهم.

ولا يعلم الله العمل الظاهر من العبد
فحسب، بل حتى ما يضمرة في قلبه، ويخفيه
في نفسه، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي
قُلُوبِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥١].

يقول: والله يعلم ما في قلوب الرجال
من ميلها إلى بعض من عنده من النساء دون
بعض بالهوى والمحبة، يقول: فلذلك وضع
عنك الحرج يا محمد فيما وضع عنك من
ابتغاء من ابتغيت منهن، ممن عزلت تفضلاً
منه عليك بذلك وتكرمة ﴿وَكَانَ اللَّهُ
عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥١].

يقول: وكان الله ذا علم بأعمال عباده،
وغير ذلك من الأشياء كلها^(٢).

ومما يدل على ذلك قوله: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي
نَفْسِي﴾ [المائدة: ١١٦].

بإحاطة الله به، وخص النفس بالذكر
لأنها مظنة الكتم والانطواء على المعلومات،
والمعنى: أن الله يعلم ما في نفس عيسى،
وقوله: ﴿وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة:
١١٦].

معناه: ولا أعلم ما عندك من المعلومات،
وما أحطت به^(٣).

ومما يبين ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿وَمَا

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٣٤٦.

(٢) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٢٩٦.

(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٢٦٣.

تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ
مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ
فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي
الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا
أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦١﴾ [يونس: ٦١].

فمراد الآية وصف إحاطة الله تعالى
بكل شيء، ومعنى اللفظ: ﴿وَمَا تَكُونُ﴾ يا
محمد، والمراد هو وغيره ﴿فِي شَأْنٍ﴾ من
جميع الشؤون ﴿وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ﴾ الضمير عائد
على ﴿شَأْنٍ﴾، أي: فيه وبسببه من قرآن،
ويحتمل أن يعود الضمير على جميع القرآن،
ثم عم بقوله: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ وفي
قوله: ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ تحذير
وتنبية^(٤).

ومما يبين ذلك قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ
مَنْ أَسْرَأَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ
بِالْأَيْلِ وَسَارِبٍ بِالنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠].

ومعنى هذه الآية: معتدل منكم في إحاطة
الله تعالى وعلمه من أسر قوله، فهمس به في
نفسه ﴿وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾ فأسمع، فلا يخفى
على الله تعالى شيء.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِالْأَيْلِ
وَسَارِبٍ بِالنَّهَارِ﴾ معناه: من هو بالليل في غاية
الاختفاء، ومن هو متصرف بالنهار ذاهب
لوجهه، سواء في علم الله تعالى وإحاطته
بهما، وذهب ابن عباس رضي الله عنهما

(٤) المصدر السابق ٣/ ١٢٧.

عمران: ٩٨].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: يريد أنه حاضر لأعمالكم.

ومعنى الآية: أن الله تعالى وبخهم على كفرهم، وأخبر أنه لا ينفعهم الاستمرار به؛ لأنه شهيد على أعمالهم^(٤).

قال ابن الجوزي: وأما الشهيد، فقال ابن قتيبة: هو بمعنى الشاهد، وقال الخطابي: هو الذي لا يغيب عنه شيء، كأنه الحاضر الشاهد^(٥).

والمقصود: أن الله تعالى ﴿شَهِدُ﴾ على ما يعمل عباد، حاضر معهم، ناظر إلى نياتهم في أعمال الخير والشر، فيجازيهم بها، فهو عالم علم المعاین الحاضر القائم الحاكم على ما يعملون دائماً، سواء أكان العمل عمل القلب، أم كان العمل عمل الجوارح.

فأله تعالى شهيد عالم معاین حاكم قوام على ما تعملون من خير ومن شر، فالنص السامي يتضمن توبيخاً على الكفر، وتهديداً بالعقاب الشديد على ما يعملون؛ لأن الله تعالى إذا كان شهيداً على ما يفعلون، وهو الحكم العدل القادر على الثواب والعقاب، فإنه بلا ريب مجازيهم على فعلهم، ومحاسبهم على مقاصدهم في أقوالهم

ومجاهد إلى معنى مقتضاه: أن «المستخفي والسار» هو رجل واحد، مريب بالليل، ويظهر بالنهار البراءة في التصرف مع الناس^(١).

وأخبر الله تعالى عن نفسه أنه لا يغفل عن عمل الخلق، فقال: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥] وقال: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٢٣] وقال: ﴿وَلَا تَحْسَبْ أَنَّ اللَّهَ غَفِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ [إبراهيم: ٤٢].

ومعنى الآيات: أن الله ليس بغافل عن عملكم، بل محيط بأعمالكم، ونياتكم، ومكرم السيئ، فمجازيكم عليه أشر الجزاء^(٢).

والغفلة: السهو والنسيان، والمراد أنه سبحانه محيط بأعمال هؤلاء الذين كتموا الحق، لا تخفى عليه منها خافية، وسيحاسبهم عليها حساباً عسيراً، ويعاقبهم على مزاعمهم الباطلة عقاباً أليماً، فالجملة الكريمة تهديد ووعد لأهل الكتاب^(٣).
وأخبر الله تعالى أنه شهيد على ما يفعله العباد.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ اللَّهُ شَهِدُ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس: ٤٦].

وقال: ﴿وَاللَّهُ شَهِدُ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ﴾ [آل

(١) المصدر السابق ٣/ ٢٩٩.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٤١.

(٣) التفسير الوسيط، طنطاوي ١/ ٢٩٠.

(٤) التفسير الوسيط، الواحدي ١/ ٤٧١.

(٥) زاد المسير ١/ ٣٠٩.

وأفعالهم.

وأخبر الله تعالى أنه محيط بما يفعله العباد.

قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [هود: ٩٢].

وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

وقال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ [النساء: ١٠٨].

وقال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا﴾ [النساء: ١٢٦].

وقال: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [الأنفال: ٤٧].

فهذه الآيات ونظيراتها تدل على أنه لا يخفى على الله شيء من أعمال عباده؛ فهو محيط بأعمالهم كلها، علماً وقدره، وسوف يجازيهم عليها في الدنيا والآخرة.

ففي قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ تذييل، قصد به إدخال الطمأنينة على قلوب المؤمنين، والرعب في قلوب أعدائهم، أي: إنه سبحانه محيط بأعمالهم، وبكل أحوالهم، ولا تخفى عليه خافية منها، وسيجازيهم عليها بما يستحقونه من عذاب أليم بسبب نياتهم الخبيثة، وأقوالهم الذميمة، وأفعالهم القبيحة^(١).

وأعلى من هذا أنه قد أحاط بكل شيء

علماً، ليست إحاطته لأعمال العباد فقط، بل بكل شيء، قال تعالى: ﴿وَلَا إِلَهَ إِلَّا أَنَّهُ يَكُنْ شَيْءٌ مُحِيطٌ﴾ [فصلت: ٥٤].

وقال: ﴿وَاللَّهُ يَنْزِلُ فِي رُءُوسِهِمْ نُجُومًا﴾ [البروج: ٢٠].

قال الطبري: ﴿وَاللَّهُ يَنْزِلُ فِي رُءُوسِهِمْ نُجُومًا﴾ بأعمالهم، محصٍ لها، لا يخفى عليه منها شيء، وهو مجازيهم على جميعها^(٢).

ففي قوله: ﴿وَاللَّهُ يَنْزِلُ فِي رُءُوسِهِمْ نُجُومًا﴾ وجوه: أحدها: أن المراد وصف اقتداره عليهم، وأنهم في قبضته وحوزته، كالمحاط إذا أحيط به من ورائه، فسد عليه مسلكه، فلا يجد مهرباً، يقول تعالى: فهو كذا في قبضتي، وأنا قادر على إهلاكهم، ومعاجلتهم بالعذاب على تكذيبهم إياك، فلا تجزع من تكذيبهم إياك، فليسوا يفوتونني إذا أردت الانتقام منهم.

وثانيها: أن يكون المراد من هذه الإحاطة قرب هلاكهم، كقول تعالى: ﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ [الفتح: ٢١] وقوله: ﴿وَلَا قُنَّا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠] وقوله: ﴿وَقُلْنَا أَنْتُمْ أَحِيطَ بِهِمْ﴾ [يونس: ٢٢] فهذا كله عبارة عن مشاركة الهلاك، يقول: فهؤلاء في تكذيبك قد شارفوا الهلاك.

وثالثها: أن يكون المراد: والله محيط

(٢) جامع البيان، الطبري ٢٤/٣٤٧.

(١) التفسير الوسيط، طنطاوي ٢/٢٤٠.

ما يعمله الملائكة والجن والإنس وتنوعها، وما جاء فيها من تقارير حاسمة عن إحاطة الله بكل شيء في كل آن، وشمول قدرته لكل شيء، واستغناؤه عن كل عون في تصريف ملكوت السماوات والأرض يدرك مدى قدرة الله وعظمته، ومدى إحاطته بكل شيء، وقدرته على كل شيء، وعدم طرؤه ما يطرأ على البشر من غفلة ونسيان عليه، ونفي أي مشابهة له في الأسماء والصفات، والقدرة الشاملة.

وفيها: إشارة إلى سعة إحاطة الله بأعمال الناس ونواياهم، فهو يعلم كل حركة من حركاتهم، خفيها وظاهرها، حتى ما يدق على المشاهدين مما تنطوي عليه لحظات العيون، وتخفيه الصدور من النوايا المريبة. فهو السميع لكل شيء، النافذ بصره إلى كل شيء، وهو الذي سيقضي بين الناس بالحق وفق أعمالهم، أما الشركاء الذين يدعواهم المشركون مع الله فليس لهم أي قدرة على شيء، أو القضاء في أي شيء، أو النفوذ إلى أي شيء^(٣).

وقد قال في آية أخرى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [آل عمران: ٥] وهذه الجملة السامية تفيد تمام إحاطة الله تعالى في علمه، فهو سبحانه

بأعمالهم، أي: عالم بها، فهو مرصد بعقابهم عليها^(١).

والخلاصة: أن هذه الآيات تدل على أن الله تعالى محيط بأعمال العباد كلها، ظاهرها، وباطنها، صغيرها وكبيرها، فمجازيهم عليها، وفيها وعيد وتهديد، يعني: أنه تعالى عالم بجميع الأشياء، لا يخفى عن علمه شيء؛ لأنه محيط بأعمال العباد كلها، فيجازي المحسنين، ويعاقب المسيئين.

ونظير هذه الآيات قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ [النساء: ١٢٦].

قال السعدي: وهذه الآية الكريمة فيها بيان إحاطة الله تعالى بجميع الأشياء، فأخبر أنه له ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: الجميع ملكه وعبيده، فهم المملوكون، وهو المالك المتفرد بتدبيرهم، وقد أحاط علمه بجميع المعلومات، وبصره بجميع المبصرات، وسمعه بجميع المسموعات، ونفذت مشيئته وقدرته بجميع الموجودات، ووسعت رحمته أهل الأرض والسماوات، وقهر بعزه وقهره كل مخلوق، ودانت له جميع الأشياء^(٢).

ولعل المتمعن في هذه الآيات التي جاء فيها الإخبار بعلم الله وخبرته وإطلاعه على

(٣) انظر: التفسير الحديث، محمد دروزة ٣٦١/٤.

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١١٦/٣١.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢٠٦.

وتعالى يتجلى له كل شيء، ولو كان خافياً عن الناس أو من شأنه الخفاء؛ ولذلك جاء التعبير عن العلم الكامل، ببيان نفي الخفاء عليه سبحانه؛ وذلك لأن العالم المحيط قد يخفى عليه شيء، لكن علم الله غير ذلك، فهو علم لا خفاء معه في شيء مطلقاً؛ وإذا كان الله سبحانه وتعالى عليماً بكل شيء، لا يخفى عليه شيء فهو يعلم القلوب وما تخفيه، وما تكنه السرائر، وما تكنه الضمائر، فهو يعلم البواعث على الكفر، وأنها ليست نقصاً في الدليل، ولكنها مأرب الدنيا، والعصبية الجنسية والمذهبية، فليس الذين ينكرون ما جاء به محمد مخلصين في إنكارهم، بل هي لجاجة العناد، وجحود المستيقن.

وذكر سبحانه السماء والأرض للإشارة إلى أن علمه قد وسع كل شيء وسع السماوات والأرض، وليس الإنسان وما تحدثه به نفسه إلا شيئاً صغيراً في هذا الملكوت العظيم؛ وذلك العالم بأرضه وسمائه، وأكد نفي الخفاء بتكرار «لا» في قوله تعالى: ﴿وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ فذكرها ثانياً تأكيداً؛ لأنه لا يخفى عليه شيء^(١).

وقال في آية أخرى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا

وَكَفَىٰ بِنَا حَسِيبٍ﴾ [الأنبياء: ٤٧] قال السعدي: يخبر تعالى عن حكمه العدل، وقضائه القسط بين عباده، إذا جمعهم في يوم القيامة، وأنه يضع لهم الموازين العادلة، التي يبين فيها مثاقيل الذر الذي توزن بها الحسنات والسيئات ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ﴾ مسلمة أو كافرة ﴿شَيْئاً﴾ بأن تنقص من حسناتها، أو يزداد في سيئاتها.

﴿وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ﴾ التي هي أصغر الأشياء وأحقرها من خير أو شر ﴿أَتَيْنَا بِهَا﴾ وأحضرناها ليجازى بها صاحبها، ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَسِيبٍ﴾ يعني: بذلك نفسه الكريمة، فكفى به حاسباً، أي: عالماً بأعمال العباد حافظاً لها، مثبتاً لها في الكتاب، عالماً بمقاديرها، ومقادير ثوابها وعقابها، واستحقاقها موصلاً للعمال جزاءها^(٢).

ويجد المتأمل في آيات القرآن الكريم أن الله تعالى كثيراً ما يقرن بين اسمه تعالى «العليم» و«الخبير» عند الكلام على علمه وخبرته بأعمال عباده، كما في قوله: ﴿فَلَمَّا بَيَّنَّا لَهُمْ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأُكَ هَذَا قَالَ نَبَايَ الْعَلِيمِ الْخَبِيرِ﴾ [التحريم: ٣] وإيثار وصفي العليم الخبير هنا دون الاسم العلم «الله» لما فيهما من التذكير بما يجب أن يعلمه الناس من إحاطة الله تعالى علماً وخبراً بكل شيء.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٢٤.

(١) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٢/ ١١٠٤.

خبر نفسه ومارسها، وعرف مكرها وتلييسها وخدعها، فحاذرها وتشمر لمعاداتها، وأخذ الحذر منها، فذلك من العباد جدير بأن يسمى خبيراً^(١).

والمقصود: أن علم الله تعالى بأعمال العباد ومجازاتهم عليها قاطع لكل شك بأن الله هو إله الحق، وأن ما يدعون من دونه من أوثان هو الباطل، وقاطع بأن الله تعالى ذا الألوهية الحققة هو العلي الكبير، أي: ذو العلو المطلق الكبير الذي ليس شيء أكبر منه؛ إذ هو رب كل شيء ومالكة، والقاهر له، والمتحكم فيه، لا إله إلا هو، ولا رب سواه، الذي يعلم ما خفي، وما ظهر، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [النمل: ٧٤] أي: إن ربك وخالقك -جل جلاله- يعلم أحوال هؤلاء الذين معك، فيعلم مناقبهم وكافرهم، وصادقهم وكاذبهم، يعلم ما يكونون في أنفسهم، ويجعلونه مكنوناً مستوراً مخفياً.

ويعلم ما يعلنون، أي: وما يظهره، ويتجاهرون به، هل هو كما يظهره ويعلنونه، هو النفاق والكذب والدجل، فإله تعالى محيط بهم، محيط بأعمالهم، سميع لأقوالهم، وهذا في مقام التهديد والوعيد، فالله يعلم كل أحوالهم ما أخفوا وما أعلنوا، فلا يطمعوا يوماً في أن يظهروا لك شيئاً لا

والعليم: القوي العلم، وهو في أسمائه تعالى دال على أكمل العلم، أي: العلم المحيط بكل معلوم.

والخبير: أخص من العليم؛ لأنه مشتق من خبر الشيء إذا أحاط بمعانيه ودقائقه؛ ولذلك يقال: خبرته، أي: بلوته، وتطلعت بواطن أمره.

والفرق بين الخبير والعلم وسائر الأشياء الدالة على صفة العلم أن الفائدة متى حصلت من موضع الحضور سميت مشاهدة، والمتصف بها هو الشاهد والشهيد، وكذلك إن حصلت عن طريق السمع أو البصر، فالمتصف بها سميع وبصير، وكذلك إن حصلت عن علم أو علامة فهو العلم، والمتصف به العالم والعليم، وإن حصلت عن استكشاف ظاهر المخبور عن باطنه يبلى أو امتحان أو تجربة، أو تبليغ فهو الخبر، والمسمى به الخبير.

قال الغزالي في «المقصد الأسنى»: العلم إذا أضيف إلى الخفايا الباطنة سمي خبرة، وسمي صاحبها خبيراً، وحظ العبد من ذلك أن يكون خبيراً بما يجري في عالمه وعالمه قلبه وبدنه، والخفايا التي يتصف القلب بها من الغش والخيانة، والتطواف حول العاجلة، وإضممار الشر، وإظهار الخير، والتجمل بإظهار الإخلاص مع الإفلاس عنه، لا يعرفها إلا ذو خبرة بالغة قد

(١) المقصد الأسنى ص ١٠٣.

وجود له لتعقده؛ لأن الله الخالق يعلم منهم ما خفي، وما أعلن^(١).

٢. السؤال على الأعمال، والمجازاة عليها.

ومما يدل على إحاطة الله بعمل الخلق، أنه يسألهم عنها، ويجازيهم بها، فلا تهمل، ولا تضيع، بل يسأل الله عنها، ويجازي عليها.

قال تعالى: ﴿وَلْتَسْأَلْنِ عَنْ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٣].

وقال: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

وقال: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٧].

فهذه الآيات وغيرها تدل على أن العباد مسؤولون عن أعمالهم، مجزيون عنها، خيراً أو شراً، يسألهم الله عنها، ويجازيهم بها، وهذا يدل على إحاطته سبحانه وتعالى بتلك الأعمال، وإحصائها، وكتابتها، وأنها محفوظة، لا تضيع، ولا تنسى، ولا تهمل.

قال في البحر: وتوعد بالسؤال عن العمل، فقال: ﴿وَلْتَسْأَلْنِ عَنْ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وهو سؤال توبيخ، لا سؤال تفهم، وسؤال التفهم هو المنفي في آيات، ثم قال: يعني: سؤال المحاسبة والمجازاة^(٢).

وهو خطاب لجميع الناس، ومثله في التأكيد والعموم قوله في سورة الحجر: ﴿فَرِيكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [١٢] ﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [١٣] [الحجر: ٩٢-٩٣].

وأكد السؤال بتأكيدين، اللام والنون، أي: عما تعملون من عمل ضلال، أو عمل هدى، والسؤال: كنية عن المحاسبة؛ لأنه سؤال حكيم، تترتب عليه الإنارة، وليس سؤال استطلاع^(٣).

قال ابن عرفة: واختلف الناس في المباح هل تكتبه الحفظة، ويتعلق فيه السؤال أو لا؟ وعموم الآية تدل على أنه يسأل عنه، ويكتب؛ لأن «ما» إن كانت موصولة بمعنى «الذي» فهي عامة؛ لأن «الذي» معرف بالألف واللام، وهذه بمعناه، وإن كانت مضافة، فيعم بالإضافة^(٤).

والمقصود: أن مما يدل على إحاطة الله بأعمال المكلفين، أنه يحصيها، ويسأل عنها، قال: ﴿وَلْتَسْأَلْنِ﴾ والسؤال سؤال محاسبة وجزاء، لا سؤال استفهام واستعلام ﴿عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ «عما» أي: «عن ما» و«ما» اسم موصول، والاسم الموصول من صيغ العموم، أي: سيحاسبنا الله سبحانه وتعالى على كل ما عملنا، من خير، أو شر، والقسم على أن الخلق سيحاسبون مع التأكيد بنون

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٤/٢٦٨.

(٤) تفسير ابن عرفة ٣/٤٥.

(١) تفسير المنتصر الكتاني ١٣٩/١٢.

(٢) البحر المحیط، أبو حیان ٦/٥٨٩.

التوكيد زيادة في التهديد والوعيد.

٣. سنة الله ابتلاء المكلفين أيهم أحسن عملاً.

ومما يدل على إحاطة الله بعمل الخلق، وإحصائه عليهم، أن الله تعالى ابتلاهم بالعمل، ليتم على وفق ذلك الجزاء، والفلاح أو الهلاك، فلما ابتلاهم بالعمل كان من اللازم أن يحصي عليهم أعمالهم؛ ليجازيهم بها في الآخرة.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ يَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧].

وقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّمَن يَنْبُلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧].
وقال: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ يَبْلُوكُم أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

فهذه الآيات تدل على أن الله خلق الخلق، وكلفهم بالعمل الصالح، وأحصاه عليهم؛ ليجازيهم به يوم القيامة.

قال البيضاوي: أي خلق ذلك كخلق من خلق؛ ليعاملكم معاملة المبتلي لأحوالكم كيف تعملون، فإن جملة ذلك أسباب ومواد لوجودكم ومعاشكم، وما تحتاج إليه أعمالكم، ودلائل وأمارات تستدلون بها، وتستنبطون منها^(١).

فلاستخلاف في الأرض منوط بالعمل الصالح، فالله يستخلف قومًا بعد آخرين؛ لينظر كيف يعملون، خيرًا أو شرًا، فيعاملهم على حسب عملهم، وبما أن الله يعلم ما سيكون في المستقبل في كل أنحاء الكون ومن المخلوقات، فيكون المقصود إقامة الدليل الحسي والمادي المشاهد على الناس من خلال أعمالهم الواقعية، وليس معنى الآية بأن الله تعالى ما كان عالمًا بأحوال الخلق قبل وجودهم؛ وإنما المراد منه أنه تعالى يعامل العباد معاملة من يطلب العلم بما يكون منهم، ليجازيهم بحسبه، كقوله: ﴿يَبْلُوكُم أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

فبين الحكمة من خلقه الخلائق، فقال: ﴿يَبْلُوكُم أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧] ولم يقل: أكثر عملاً.

وقال في أول سورة الكهف: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّمَن يَبْلُوكُم أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧].

وقال في أول سورة الملك: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ يَبْلُوكُم أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

فهذه الآيات دلت على أنه خلق الخلق ليمتحنهم، وهذا لا ينافي: ﴿وَمَا خَلَقْتُ لِيُغْنَى

(١) أنوار التنزيل، البيضاوي ١٢٨/٣.

(٢) التفسير المنير، الزحيلي ١٢٦/١١.

أنواع الأعمال وشروطها

أشار القرآن الكريم إلى أنواع من العمل، وإلى بعض شروطها، ومن هذه الأعمال:

أولاً: العمل الصالح:

العمل الصالح في مفهوم القرآن هو جميع الطاعات التي أمر الله بها، وأمر بها رسوله صلى الله عليه وسلم، وكل عمل يحبه الله ويرضاه فهو من العمل الصالح، بل يتعدى ذلك إلى كل عمل قصد به فاعله وجهه الله تعالى، وكان موافقاً لهدي رسوله، وإن كان فعلاً عادياً، يفعله الإنسان بدافع العادة. وقد عبر الله عنه في القرآن بالعمل الصالح، وبالصالحات، وبالحسنات، والطاعة، والحسنة، والخير، وغير ذلك من الألفاظ التي تدل على العمل الصالح.

قال تعالى: ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾

[فاطر: ١٠].

وقال: ﴿وَيُخَوِّضُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّالِحَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥].

وقال: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ

أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠].

وقال: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾

[هود: ١١٤].

وقال: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾ [محمد:

٢١].

وقال: ﴿وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ

وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]

أي: إلا لأمرهم بعبادتي على السنة رسلي، وأمتحنهم فيظهر المحسن منهم وغير المحسن، وبين النبي صلى الله عليه وسلم أن طريق الإحسان محصورة في هذا الزاجر الأكبر، والواعظ الأعظم، وهو أن يعلم العبد الضعيف الذليل المسكين أن جبار السماوات والأرض مطلع عليه، حاضر لا يغيب عنه شيء من فعله، يعلم كل ما يفعل؛ ولذا فجميع الخلائق الله جل وعلا مطلع عليهم، لا يخفى عليه شيء من أعمالهم، لا يغيب عنه شيء من أعمالهم؛ ولذا قال: ﴿لَنَنْقُصَنَّ عَنْهُمْ بَعْدَ وَفَاءِ مَا كُنَّا عَلَيْهِمْ﴾

[الأعراف: ٧]^(١).

(١) انظر: العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير ٦٦/٣.

تَقْلِحُونَ ﴿[الحج: ٧٧].

ففي قوله: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: الخصال والفعالات الصالحات، نعت لاسم مؤنث محذوف.

ومعناه: أخلصوا الأعمال، يدل عليه قوله: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ [الكهف: ١١٠].

أي: خالصًا؛ لأن المنافق والمرائي لا يكون عمله خالصًا، وقال ابن عباس -رضي الله عنهما-: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فيما بينهم وبين ربهم، وقال: العمل الصالح يكون فيه أربعة أشياء: العلم، والنية، والصبر، والإخلاص.

وقال سهل بن عبد الله: لزموا السنة؛ لأن عمل المبتدع لا يكون صالحًا.

وقيل: أدوا الأمانة، يدل عليه قوله: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ [الكهف: ٨٢]. أي: أمينًا.

وقيل: تابوا، ودليله قوله تعالى: ﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ [يوسف: ٩]. أي: التائبين (١).

والعمل الصالح أيضًا هو ما يصلح للقبول، وهو ما يؤدي على الوجه المأمور به، ويقال: العمل الصالح ما كان بنعت الخلوص، وصاحبه صادق فيه، ويقال: هو الذي لا يستعجل عليه صاحبه حفظًا في الدنيا

(١) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ١/ ١٧٠، معالم التنزيل، البغوي ١/ ٧٣.

من أخذ عوض، أو قبول جاه، أو انعقاد رياسة، وما في هذا المعنى (٢).

فالصالحات: هي الأعمال التي تعود بالخير عليك، أو على غيرك، وأضعف الإيمان في عمل الصالح أن تترك الصالح في ذاته على صلاحه فلا تفسده، كأن تجد بثرا يشرب منه الناس فلا تطمسه ولا تلوثه، فإن رقيت العمل الصالح، فيمكنك أن تزيد من صلاحه، فتبني حوله جدارًا يحميه، أو تجعل له غطاءً.

قال ابن عثيمين: و﴿الصَّالِحَاتِ﴾ هي: التي كانت خالصة لله، وموافقة لشريعة الله. ولا يمكن أن يكون العمل صالحًا إلا بهذا الإخلاص لله، والموافقة لشريعة الله، فمن أشرك فعمله غير صالح، ومن ابتدع فعمله غير صالح، ويكون مردودًا عليهما، ودليل ذلك قوله تبارك وتعالى في الحديث القدسي: (أنا أغني الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه) (٣).

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد) (٤).

(٢) لطائف الإشارات، القشيري ٢/ ٣٧٦.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله، ٢٢٨٩/٤، رقم ٢٩٨٥.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود، ٣/ ١٨٤، رقم ٢٦٩٧، ومسلم في

أي: مردود عليه، فصار العمل الصالح ما جمع وصفين: الإخلاص لله، والمتابعة لشريعة الله، أو لرسول الله^(١).

وهذا العمل الصالح مطلوب من كل أحد، لم يستثن الله نبياً ولا رسولاً من إلزامه بالعمل الصالح؛ لذا أعقب بيان نعمه وأفضاله على داود بأمره مع أهله بصالح العمل، وهو فعل الأوامر، وترك النواهي، كما قال تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ [سبأ: ١٣].

وعلى الترغيب بالعمل الصالح بأنه تعالى بصير بأعمال عباده وأقوالهم، لا يغيب عنه شيء، فيجازيهم عليها^(٢).

وإن ثواب العمل الصالح، وعقاب العمل السيئ يرجع إلى صاحبه، فينفعه أو يضره في آخرته، وإن جميع الخلائق عائدون إلى ربهم للحساب والجزاء، فالعمل الصالح يعود بالنفع على فاعله، والعمل الرديء يعود بالضرر على فاعله، وأنه تعالى أمر بهذا، ونهى عن ذلك، لحظ العبد، لا لنفع يرجع إليه، وهذا ترغيب منه تعالى في العمل الصالح، وزجر عن العمل الباطل^(٣).

صحيحه، كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، ورد محدثات الأمور، ١٣٤٣/٣، رقم ١٧١٨.

(١) تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، سورة الكهف ص ١٤٧.

(٢) التفسير المنير، الزحيلي ٢٢/١٥٠.

(٣) المصدر السابق ٢٥/٢٦٥.

وإن اقتران الإيمان دائماً بالعمل الصالح يدل على أن الإسلام يدعو إلى العمل الإيجابي للخير، فليس الإيمان في الإسلام مجرد نزاهة روحية، وتعب في الصوامع، إنما الإيمان مظهره عمل إيجابي، فيه نفع للناس؛ فالإسلام يدعو إلى العمل الإيجابي، لا مجرد التقديس السلبي.

وإذا كان العمل الصالح هو النفع العام والنفع الخاص، فإنه يفرق عن الصلاة والزكاة، من حيث إن هذه هي الفرائض الوقتية المنظمة للعلاقات بين العبد وربّه، وبين العبد والناس، أما العمل الصالح فهو الحال الدائمة للمؤمن التي لا تتقيد بزمان ولا مكان ولا حال، فكما أن الإيمان حال دائم، فالعمل الصالح أي النفع الدائم المستمر للإنسان هو الذي ينبغي أن يكون حالاً دائماً مستمرة للمؤمن^(٤).

شروط العمل الصالح في القرآن: دل القرآن العظيم على أن العمل الصالح هو ما استكمل ثلاثة أمور:

الأول: موافقته لما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأن الله يقول: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧].

الثاني: أن يكون خالصاً لله تعالى؛ لأن الله جل وعلا يقول: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا

(٤) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٢/١٠٥٣.

اللَّهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴿البينة: ٥﴾.

وقال: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْبَدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ﴿١٤﴾ فَأَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ [الزمر: ١٤-١٥].

الثالث: أن يكون مبنياً على أساس العقيدة الصحيحة؛ لأن الله يقول: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْفًى وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [النحل: ٩٧].

فقد ذلك بالإيمان، ومفهوم مخالفته أنه لو كان غير مؤمن لما قبل منه ذلك العمل الصالح.

وقد أوضح جل وعلا هذا المفهوم في آيات كثيرة، كقوله في عمل غير المؤمن: ﴿وَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى النَّاسِ إِذْ أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ وَجَبَلَهُمْ إِزْرًا يُؤْتُونَ فِيهِمْ مِمَّا رَزَقَهُمْ وَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [الفرقان: ٢٣].

وقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٦].

وقوله: ﴿اعْمَلُوا كَمَا كُنْتُمْ تُعْمَلُونَ﴾ [التور: ٣٩] الآية.

وقوله: ﴿اعْمَلُوا كَمَا كُنْتُمْ تُعْمَلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٨].

إلى غير ذلك من الآيات^(١).

والمقصود: أن العمل الصالح له شروط، وهي ما سبق ذكرها، فلا ينبغي الاعتراض بصورة العمل الصالح، فرب عمل صالح في الظاهر لا يثمر خيراً، أو عمل صالح لا

(١) أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ٤٤٠.

يستفيد منه صاحبه قريباً من الله.

وقد ذكر القرآن كثيراً أن بعض الأعمال حابطة؛ لأنها لم تستوف شروطها، قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾ [الكهف: ١٠٥].

وقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَصْحَبَ اللَّهُ وَكَفَرُوا بِرِضْوَانِهِ فَاحْبَطَ أَعْمَالُهُمْ﴾ [محمد: ٢٨].

وقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢]. ونظائرها كثيرة.

والحبوط: من حبطت الإبل: إذا أكلت الخضر، فنفع بطونها، وربما هلك^(٢)، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: (وإن مما ينبت الربيع لما يقتل حبطاً أو يلم)^(٣).

ومن أخواته: حبجت الإبل، إذا أكلت العرفج، فأصابها ذلك، وأحبض عمله: مثل أحبطه، وحبط الجرح وحبر: إذا غفر،

(٢) انظر: العين، الفراهيدي ٣/ ١٧٤، تهذيب اللغة، الأزهرى ٤/ ٢٢٨، لسان العرب، ابن منظور ٧/ ٢٧٢.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب فضل النفقة في سبيل الله، ٤/ ٢٦، رقم ٢٨٤٢، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب تخوف ما يخرج من زهرة الدنيا، ٢/ ٧٢٧، رقم ١٠٥٢.

وهو نكسه وتراميه إلى الفساد، جعل العمل السيئ في إضراره بالعمل الصالح كالداء والحرص لمن يصاب به، أعاذنا الله من حبط الأعمال، وخيبة الآمال.

وقد دلت الآية على أمرين هائلين:

أحدهما: أن فيما يرتكب من يؤمن من الآثام ما يحبط عمله.

والثاني: أن في آثامه ما لا يُدرى أنه محبط، ولعله عند الله كذلك، فعلى المؤمن أن يكون في تقواه كالماشي في طريق شائك لا يزال يحترز ويتوقى ويتحفظ^(١).

ثانيًا: العمل السيئ:

ذكر القرآن من أنواع العمل السيئ، وهو الذي من شأنه أن يسوء صاحبه^(٢). إذا رآه في صحيفته.

وأطلق عليه القرآن فاحشة، وذنبًا، ومعصيةً، وسيئةً، وغيرها من الاطلاقات، لكن جرى أسلوب القرآن أن الله إذا قال: ﴿يَمَا قَدَمَت يَدَاكَ﴾، يراد به العمل السيئ، ودليله قول الله تعالى: ﴿ذَلِكَ يَمَا قَدَمَت يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [الحج: ١٠].

وقد جمع الله العمل الصالح والسيئ في آية واحدة، قال الله تعالى: ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ

(١) الكشف، الزمخشري ٤/ ٣٥٥.

(٢) السراج المنير، الشرييني ٣/ ٣٣٣.

الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ [الزمر: ٣٥].

فذكر نوعين من العمل السيئ والحسن، ثم أخبر أنه يكفر عنهم أسوأ الذي عملوا، ويجزيهم بأحسن الذي كانوا يعملون، فيحتمل: الأحسن: الحسنات نفسها يجزيها، ويكفر السيئات.

ويحتمل: أنه يكفر أسوأ السيئات وأعظمها، ويجزي على أحسن الحسنات وأعظمها، فعلى هذا أحسن وأسوأ من نوعها، أحسن الحسنات، وأسوأ السيئات، وعلى الأول من غير نوعها، أي: يكفر السيئات، ويجزي بالحسنات^(٣).

والمقصود: أن الأعمال السيئة: هي التي يعملها الإنسان على غير الوجه المشروع، فكل عمل على هذا النحو هو عمل سوء.

والأفعال السيئة على أربعة أنواع: الأول: الفعل بأحد الجوارح، كالزنا والسرقة.

الثاني: فعل اللسان، فهو عمل، والدليل على أن قول اللسان من الأفعال: أن الله صرح أن قول اللسان من الأفعال في قوله جل وعلا: ﴿رُحِرْفَ الْقَوْلِ عَزُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: ١١٢].

فأطلق على زخرف القول اسم «الفعل» فدل على أن قول اللسان فعل.

الثالث: العزم المصمم؛ لأن عزم الإنسان

(٣) تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٨/ ٦٨٢.

لا شك فيها على أن الترك من الأفعال، منها: آيتان في سورة المائدة، إحداهما قوله تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمْ آلَانُ وَأَكْلِهِمْ الشَّحْتِ لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: ٦٣].

فسمى عدم نهيم وتركهم للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سماه: «صنعاً» والصنع أخص من مطلق الفعل، ومنه قوله تعالى في المائدة أيضاً: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾. ثم قال: ﴿لَيْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾.

[المائدة: ٧٩] يعني به تركهم للتناهي عن المنكر، سماه «فعلًا» وأنشأ له الذم بقوله: ﴿لَيْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾.

هذه الأقسام الأربعة هي الأفعال، واللغة العربية تدل على أن الترك من الأفعال. وبهذا يعلم أن قوله في هذه الآية الكريمة: ﴿مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا﴾ [الأنعام: ٥٤]. أن عمل السوء قد يكون بفعل أحد الجوارح، وقد يكون بفعل اللسان، وقد يكون بالعزم المصمم^(١).

وأطلق القرآن كثيرًا على العمل السيئ: السيئة، وهي: اسم كالخطيئة، والسوأي، بوزن فعلى: اسم للفعلة السيئة، بمنزلة الحسنى للحسنة، محمولة على جهة النعت

المصمم دلت السنة الصحيحة على أنه من الأفعال السيئة التي تدخل صاحبها النار، أما الهم الذي لم يكن عزمًا مصممًا، فليس من الأفعال، كما قال جل وعلا: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا﴾ [آل عمران: ١٢٢].

وإتباعه لذلك بقوله: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهَا﴾ دل على أنه همٌ لم يستقر، ولم يكن عزمًا مصممًا حتى يعد من الأفعال، ومن ذلك الهم الذي ليس من العزم المصمم الذي هو من الأفعال.

الرابع: هو الترك، والترك من الأفعال الحقيقية، فهو فعلٌ على التحقيق، وإن خالف فيه من خالف، فمن ترك الصلاة حتى ضاع وقتها فقد عمل بهذا الترك عملاً سيئًا يدخل به النار، وكان ابن السبكي في بعض تأليفه في الأصول يقول: طالعت كتاب الله لأجد فيه آية تدل على أن الترك فعلٌ فما وجدت فيه شيئًا يدل على أن الترك فعلٌ إلا شيئًا يفهم من آية في سورة الفرقان هي قوله: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠].

قال: الاتخاذ أصله من الأخذ، والأخذ: تناول، فقال: تناولوه مهجورًا، فدل على أن الهجر فعلٌ.

ونحن نقول: إنا باتباع كتاب الله وجدنا آياتٍ صريحةً من كتاب الله تدل بصراحةٍ

(١) العذب النмир من مجالس الشنقيطي في التفسير ٣٤٣/١.

في حد أفعل وفعلى، كالأسوأ والسوأى، رجلٌ أسوأ، وامرأة سوأى، أي: قبيحة، والسوأة: كل عمل وأمر شائن، وتقول في النكرة: رجل سوء، وإذا عرفت، قلت: هذا الرجل السوء، ولم تضيف، وتقول: هذا عمل سوء، ولم تقل: العمل السوء؛ لأن السوء يكون نعتاً للرجل، ولا يكون السوء نعتاً للعمل؛ لأن الفعل من الرجل، وليس الفعل من السوء، كما تقول: قول صدق، والقول الصدق، ورجل صدق، ولا تقول: الرجل الصدق؛ لأن الرجل ليس من الصدق^(١).

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ [يونس: ٢٧].

والسيئات على وجوه: كأكل الحرام، وشرب الخمر، والغيبة ونحوها، لكن أسوأ الكل الشرك بالله؛ ولذلك لا يغفر، وهو جلي وخفي -حفظنا الله منهما-، وكذا الحسنات على وجوه: ويجمعها العمل الصالح، وهو ما أريد به وجه الله، وأحسن الكل التوحيد؛ لأنه أساس جميع الحسنات، وقامع السيئات^(٢).

وقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنفَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر: ٤٠].

وقال بعض الحكماء: إن الله تعالى قال: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً﴾ ولم يقل: من ذكر أو أنثى وقال: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنفَىٰ﴾ لأن العمل الصالح يحسن من الرجل والمرأة، والسيئة من المرأة أقبح من الرجل، فلم يذكر من ذكر أو أنثى^(٣).

وقال تعالى: ﴿وَأَخْرَجُوا عَنَّا زَكَرِيَّا إِذْ هُوَ نَذِيرٌ﴾ [التوبة: ١٠٢].

فالعمل السيئ هو: التخلف عن الغزو بلا إشكال، وأما العمل الصالح ففيه معنيان: أحدهما: ندامتهم، وربطهم أنفسهم بالسواري.

والثاني: العمل الصالح: هو غزواتهم مع رسول الله من قبل^(٤). والصواب العموم في كلا العاملين.

ومعنى الخلطة: أنهم خلطوا كل واحد منهما بالآخر، كقولك: خلطت الماء باللبن واللبن بالماء؛ ذكره غالب المفسرين، وأنكره الرازي، وقال: الواو لمطلق الجمع، وفيه تنبيه على نفي القول بالمخالطة، وأنه بقي كل واحد منهما كما كان من غير أن يتأثر أحدهما بالآخر^(٥).

وأطلق القرآن على العمل السيئ أيضًا: الخبيث، قال تعالى: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [الأنفال: ٣٧] قيل: يعني: الكافر

(٣) تفسير السمرقندي ٣/ ٢٠٧.

(٤) تفسير السمعاني ٢/ ٣٤٤.

(٥) فتح البيان، صديق خان ٥/ ٣٨٧.

(١) العين ٧/ ٣٢٨.

(٢) روح البيان ٢/ ٢٨٦.

البضائع، أو الصيد، أو خلافه^(٦). وهذا من العمل المباح الذي ذكره القرآن.

ومعنى الآية: أما السفينة التي خرقتها، وأنكرت علي ذلك، فقد كانت لمساكين محتاجين، يعملون في البحر للتجارة، وصيد الأسماك، وهي مرتزقهم في الحياة، وكان لهم ملك جبار ظالم نهم يأخذ لنفسه كل سفينة صالحة، ويغتصبها غصبًا من أهلها بدون الرجوع إلى حق، أو قانون^(٧).

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الشَّيْطَانِ مَنْ يَقُولُ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ﴾ [الأنبياء: ٨٢].

أي: يغوصون له في البحار، فيستخرجون الجواهر، ويتجاوزون ذلك إلى الأعمال والمهن وبناء المدائن والقصور، واختراع الصنائع العجيبة، كما قال: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرُوبٍ وَتَمَثِّلُ﴾ والله حافظهم أن يزيغوا عن أمره، أو يبدلوا أو يغيروا، أو يوجد منهم فساد في الجملة فيما هم مسخرون فيه^(٨).

ومن العمل المباح الذي ذكره القرآن أيضًا الصناعة، قال تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرُوبٍ وَتَمَثِّلُ وَحِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ أَعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ

من المؤمنين، فينزل المؤمن الجنان، والكافر النيران، وقال الكلبي: العمل الخبيث من العمل الصالح الطيب، فيثيب على الأعمال الصالحة الجنة، وعلى الأعمال الخبيثة النار^(٩).

ثالثًا: العمل المباح:

وذكر القرآن من أنواع العمل «العمل المباح» وهو العمل في البحر، والتجارة، والصناعة، قال تعالى: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ [الكهف: ٧٩].

قال السمرقندي: ﴿يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ أي: يؤاجرون في البحر، ويكسبون قوتهم^(١٠). فهذه السفينة كانت لفقراء يحترفون العمل في البحر، لنقل الناس من ساحل إلى آخر^(١١).

وإسناد العمل إلى الكل حيثئذ إنما هو بطريق التغليب، أو لأن عمل الوكلاء بمنزلة عمل الموكلين^(١٢).

ومن فوائد الآية: أن العمل يجوز في البحر، كما يجوز في البر؛ لقوله: ﴿يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ [الكهف: ٧٩]^(١٣). أي: مجال عملهم البحر، يعملون فيه بنقل الركاب، أو

(١) معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٣٥٦.

(٢) تفسير السمرقندي ٢/ ٣٥٧.

(٣) تفسير القرآن الكريم، المقدم ٩٢/ ٥.

(٤) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٢٣٧.

(٥) تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن، السعدي ص ٢٥٩.

(٦) تفسير الشعراوي ١٤/ ٨٩٦٧.

(٧) التفسير الواضح، محمد حجازي ٢/ ٤٣٢.

(٨) الكشاف، الزمخشري ٣/ ١٣٠.

مِنْ عِبَادِ الشُّكْرِ ﴿١٣﴾ [سبأ: ١٣].

ففي قوله: ﴿يَعْمَلُونَ لَكَ مَا يُشَاءُ مِنْ تَحْرِيْبٍ وَتَمْنِيْلٍ وَجَفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ﴾ هذا عمل في الصناعة.

قال السمعاني: قوله تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَكَ مَا يُشَاءُ مِنْ تَحْرِيْبٍ﴾ أي: المساجد، ويقال: الأبنية المرتفعة، وفي القصة: أنه أمرهم ببناء الحصون بالصخر، فبنوا باليمن حصوناً كثيرة عجيبة، وهي صرّاح ومرواح وفتون وهندة وهنيدة وغمدان وغير ذلك.

وقوله: ﴿وَتَمْنِيْلٍ﴾ أي: الصور، فإن قال قائل: أليس أن عمل الصور مكروه؟

قلنا: هو في هذه الشريعة، ويحتمل أنها كانت مباحة في شريعته، وقد كان عيسى يصور من الطين، وينفخ فيه فيجعله الله طيراً، واختلف القول في الصور التي اتخذتها الشياطين؛ فأحد القولين: أنها صورة السباع والطيور من العقبان والنسور، وما أشبه ذلك.

والقول الثاني: أنه أمرهم باتخاذ صورة الأنبياء والزهاد والعباد، حتى إذا نظرت بنو إسرائيل إليهم ازدادوا عبادة.

وقوله: ﴿وَجَفَانٍ كَالْجَوَابِ﴾ أي: كالحياض، والجفان جمع جفنة، وفي القصة: أن كل جفنة كان يقعد عليها ألف إنسان^(١).

(١) تفسير السمعاني ٤/ ٣٢١.

ولهذا قال بعد ذلك: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ [سبأ: ١٣] أي: صالحاً من الأعمال، فإنه لا نجاح، ولا فوز على العدو بالقوة المادية فقط، بل لا بد من العمل الصالح الذي يقوم النفوس، ويظهر الأرواح، ويحصنها حتى لا تكبو، ومن المطلاع على خفايا النفوس؟ إنه الله عالم الغيب والشهادة، إنه بما تعملون بصير فاحذروه.

ويظهر - والله أعلم - أن داود كافح وقاتل حتى خلص الملك من الأعداء فمدته كانت مدة حرب وجلاد، ولذلك كان مشغولاً بعمل الدروع السوابغ، وفي أيام سليمان كان الهدوء مخيمًا على المملكة، فكان سليمان يتنقل على بساطه الذي يحمله الريح ليشرّف على أطراف المملكة الواسعة الأرجاء، والشعب كان مشغولاً بالبناء والصناعة، وتأسيس الدور والمعابد؛ ولذلك من الله عليه بإذابة النحاس له، وتسخير الجن يعملون له ما يشاء من محاريب، وتمائيل، وقصاع كالجوابي، وقدور واسعة ثقيلة، لا تنقل، بل هي راسيات كالجبال.

وكانت الجن تعمل بين يديه ما يريد به، بإذن ربه، وهي مهددة، فمن يزغ منهم عن أمر الله: يمل عنه، يذقه عذاباً شديداً من عذاب السعير.

فيا آل داود: هذه بعض نعم الله عليكم، وهي نعم سابغة كثيرة، ومن أعطي هذا

والعمل^(٢).

ونظير ما جاء في الصناعة قوله تعالى:
﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِنُحْصِنَكُمْ
مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾ [الأنبياء:
٨٠].

فقوله: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ﴾ تلك هي
صناعة الدروع حلقة متداخلة، بعد أن كانت
تصنع صفيحة واحدة جامدة، والزرود
المتداخل أيسر استعمالاً، وأكثر مرونة،
ويبدو أن داود هو الذي ابتدع هذا النوع
من الدروع بتعليم الله، والله يمن على
الناس أن علم داود هذه الصناعة لوقايتهم
في الحرب ﴿لِنُحْصِنَكُمْ مِّنْ بَأْسِكُمْ﴾ وهو
يسألهم سؤال توجيه وتحضيض ﴿فَهَلْ أَنتُمْ
شَاكِرُونَ؟﴾

والحضارة البشرية سارت في طريقها
خطوة خطوة وراء الكشف، ولم تجيء
طفرة؛ لأن خلافة الأرض تركت لهذا
الإنسان، ولمداركه التي زوده الله بها ليخطو
في كل يوم خطوة، ويعيد تنسيق حياته وفق
هذه الخطوة، وإعادة تنسيق الحياة وفق نظام
جديد ليست سهلة على النفس البشرية،
فهي تهز أعماقها، وتغير عاداتها ومألوفها،
وتقتضي فترة من الزمان لإعادة الاستقرار
الذي تطمئن فيه إلى العمل والإنتاج، ومن
ثم شاءت حكمة الله أن تكون هناك فترة

فليعمل لله شكراً، وقليل من عبادة الشكور،
قليل من تصفو نفسه، ويطهر قلبه، ويقابل
الإحسان بالشكر، والنعمة بالحمد ﴿إِنَّ
الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: ٦].

وخذوا أيها الناس العبرة من داود
وسليمان، عبدا ربهما، وشكرا وأخلصا،
فمن الله عليهما بالنعمة التي لا تحصى،
وأجرى على أيديهما المعجزات^(١).

وقال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ
خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ
تَتَّخِذُونَ مِنْ سَهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ
الْجِبَالَ يَبُوتًا﴾ [الأعراف: ٧٤].

أي: وتذكروا نعم الله عليكم، وإحسانه
إليكم؛ إذ جعلكم خلفاء لعاد في الحضارة
والعمران، والقوة والبأس، وأنزلكم منازلهم
تتخذون من سهولها قصوراً زاهية، ودوراً
عالية، بما ألهمكم من حذق في الصناعة،
فجعلكم تضربون اللبن، وتحرقونه أجراً
«الطوب المحرق» وتستعملون الجص،
وتجيدون هندسة البناء، ودقة النجارة،
وتنحتون من الجبال بيوتاً؛ إذ علمكم صناعة
النحت، وآتاكم القوة والجلد.

وروي: أنهم كانوا يسكنون الجبال
في الشتاء لما في البيوت المنحوتة من
القوة، فلا تؤثر فيها الأمطار والعواصف،
ويسكنون السهول في باقي الفصول للزراعة

(٢) تفسير المراغي ٨/ ١٩٩.

(١) التفسير الواضح، محمد حجازي ٣/ ١٣٢.

الأصول فأربعة: الزراعة والحياسة وبناء البيوت والسلطنة.

وذلك لأن الإنسان مضطر إلى طعام يأكله، وثوب يلبسه، وبناء يجلس فيه، والإنسان مدني بالطبع، فلا تتم مصلحته إلا عند اجتماع جمع من أبناء جنسه، يشتغل كل واحد منهم بمهم خاص، فحيثما ينتظم من الكل مصالح الكل؛ وذلك الانتظام لا بد وأن يفضي إلى المزاومة، ولا بد من شخص يدفع ضرر البعض عن البعض؛ وذلك هو السلطان، فثبت أنه لا تنتظم مصلحة العالم إلا بهذه الأمور الأربعة^(٣).

ومن العمل المباح الذي ذكره القرآن أيضًا العمل في التجارة، قال تعالى: ﴿وَأَخْرَجُوا بِضْعَتَهُمْ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠].

قال أبو جعفر: ﴿وَأَخْرَجُوا بِضْعَتَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ في سفر ﴿يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ في تجارة، قد سافروا لطلب المعاش^(٤). وقال السيوطي: هذه الآية أصل في التجارة^(٥).

وقد كان بعض الصحابة يتأول من هذه الآية فضيلة التجارة والسفر للتجارة، حيث سوى الله بين المجاهدين والمكتسبين

استقرار تطول أو تقصر، بعد كل تنسيق جديد، والقلق الذي يستولي على أعصاب العالم اليوم منشؤه الأول سرعة توالي الهزات العلمية والاجتماعية التي لا تدع للبشرية فترة استقرار، ولا تدع للنفس فرصة التكيف والتذوق للوضع الجديد^(١).

والمقصود: أن القرآن أخبر عن نبي الله داود الذي آتاه الحكم والخلافة في الأرض أنه قد اتخذ لنفسه صناعة يأكل منها، وأفهمه الله تعالى هذه الصناعة، وما كان أكل الرجل من عمل يده عيبًا، إنما العيب أن يكون كلاً على الناس، وهو القادر على العمل، ولقد جاء في تفسير القرطبي ما نصه: «هذه الآية أصل في اتخاذ الصنائع والأسباب، وهو قول أهل العقول والألباب، فالسبب سنة الله في خلقه، وقد أخبر الله تعالى عن نبيه داود عليه السلام أنه كان يصنع الدروع، وكان أيضًا يصنع الخوص، وكان يأكل من عمل يده، وكان آدم حرثًا، ونوح نجارًا، ولقمان خياطًا، وطالوت دباغًا، وقيل: سقاء، فبالصناعة يكف الإنسان نفسه عن الناس، ويدفع بها الضرر»^(٢).

وقال الرازي وهو يتكلم على هذه الآية ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ﴾ [الأنبياء: ٨٠]: إن مصالح العالم إما أصول وإما فروع، أما

(٣) مفاتيح الغيب ٢٩/٤٧١.

(٤) جامع البيان، الطبري ٢٣/٦٩٩.

(٥) الإكليل في استنباط التنزيل ص ٢٧٦.

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/٢٣٩٠.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/٣٢١.

المال الحلال^(١).

وقال الله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُوبُوا وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

ومن فوائد هذه الآية: جواز الاتجار؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً﴾ ولكن هذا الإطلاق مقيد بالشروط التي دلت عليها النصوص؛ فلو اتجر الإنسان بأمر محرم فهذا لا يجوز من نصوص أخرى؛ ولو رابى الإنسان يريد التجارة والربح قلنا: هذا حرام من نصوص أخرى؛ إذاً هذا المطلق الذي هو التجارة مقيد بالنصوص الدالة على أن التجارة لا بد فيها من شروط.

ومن فوائد الآية: أن التجارة نوعان:

❁ تجارة حاضرة.

❁ تجارة غير حاضرة.

فأما الحاضرة فهي التي تدار بين الناس بدون أجل؛ وأما غير الحاضرة فهي التي تكون بأجل، أو على مسمى موصوف غير حاضر.

ومنها: أن الأصل في التجارة الدوران؛ لقوله تعالى: ﴿تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾ فأما الشيء الراكد الذي لا يدار فهل يسمى تجارة؟ يرى بعض العلماء أنه ليس تجارة؛ ولذلك يقولون: ليس فيه زكاة، وأن

الزكاة إنما هي في المال الذي يدار -يعني يتداول-، ويرى آخرون أنها تجارة؛ ولكنها تجارة راكدة؛ وهذا يقع كثيراً فيما إذا فسدت التجارة، وكسد البيع؛ فربما تبقى السلع عند أصحابها مدة طويلة لا يحركونها؛ لكن هي في حكم المدارة؛ لأن أصحابها ينتظرون أي إنسان يأتي، فيبيعون عليه^(٢).

ومن العمل المباح الذي ذكره القرآن أيضاً العمل في الأرض والزرع، قال تعالى: ﴿لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٣٥].

فقوله: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ ما معطوفة على ثمره، أي: ليأكلوا من الثمر، وما عملته أيديهم بالحرث والزراعة والغراسة^(٣).

وقال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

قيل: في هذه الآية دلالة على أن اتخاذ الزرع من أعلى الحرف التي يتخذها الناس؛ ولذلك ضرب الله به المثل في قوله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ﴾ الآية.

وفي صحيح مسلم: (ما من مسلم يغرس غرساً، أو يزرع زرعاً، فيأكل منه طير أو

(٢) تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، الفاتحة والبقرة ٤١٨/٣.

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ١٨٢/٢.

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨٥/٢٩.

إنسان أو بهيمة إلا كان له صدقة^(١).

وفي الترمذي: (التمسوا الرزق في خبايا الأرض)^(٢). يعني: الزرع.

وقال رجل لآخر: دلني على عمل أعالجه، فقال له:

تتبع خبايا الأرض وادع مليكها

لعلك يوماً أن تجاب وترزقا^(٣)

والزراعة: من فروض الكفاية، فيجبر عليها بعض الناس إذا اتفقوا على تركها^(٤).

وقد نبه سبحانه وتعالى إلى أن طرق الكسب قسمان؛ وذلك في قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾

[البقرة: ٢٦٧].

ففي هذا النص الكريم تقسيم حكيم؛ وقد قدم سبحانه وتعالى القسم الأول، وهو الكسب الذي يكون بعمل الإنسان، سواء أكان صناعة أم كان تجارة، وسواء أكان عملاً آلياً، أم كان عملاً فكرياً؛ وكان ذلك

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب فضل الغرس والزرع، ٣/ ١١٨٨، رقم ١٥٥٢.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط، ١/ ٢٧٤، رقم ٨٩٥ والبيهقي في الشعب ٢/ ٤٤٠، رقم ١٧٩.

وضعه الألباني في ضعيف الجامع ص ١٦٢.

(٣) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٣/ ٢، لسان العرب، ابن منظور ١/ ٦٢.

(٤) البحر المحیط في التفسير، أبو حيان ٢/ ٦٥٧.

التقديم لأسباب كثيرة:

منها: بيان فضل الأكل من العمل والكسب، كما قال صلى الله عليه وسلم: (ما أكل ابن آدم طعاماً خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده)^(٥).

ومنها: أن العطاء من مال يجيء بمجهود، وتبذل فيه الجهود يكون أعظم ثواباً.

ومنها: إعلاء قدر العمل الإنساني؛ لأن به إقامة العمران، وإصلاح الأرض، وتقدم هذا الوجود الإنساني في معيشتة، ووسائل رزقه.

والقسم الثاني: فيه خير كثير، ولكنه كله بفضل الله تعالى لا عمل للعبد إلا إلقاء البذر، وغرس الغراس، والقيام عليها، والباقي كله لله الواحد القهار.

وهنا يسأل سائل: لماذا أضاف سبحانه ما يخرج من الأرض إليه سبحانه وتعالى مع أن للعبد فيه عملاً من حرث وبذر وإصلاح ومراقبة، ثم أضيف الكسب بالتجارة والصناعة والعمل في هذه الدنيا إلى العبد، مع أنه برزق من الله؛ لأنه هو الذي قسم الأرزاق بين العباد، وجميع ما للعبد من مكاسب بتوفيقه ورزقه، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُ يُؤْتُونَ﴾ [البقرة: ٣] وكما

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده، ٣/ ٥٧، رقم ٢٠٧٢.

قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦] فكل شيء منه وإليه، وكل كسب للعبد سواء أكان من الزرع والضرع، أم كان من الصناعة أو التجارة فهو من الله وبفضله وبتوقيفه ورزقه وهدايته، بل عطائه سبحانه وإن لذلك السؤال موضعه، وأن الله سبحانه في بعض آي الذكر الحكيم يضيف الكسب إلى العبد لأنه الذي باشر العمل، وفي بعضه يضيف الرزق إلى الرب لأنه المانح، وهو سبحانه يصرف الآيات لمن يفقهونها، ولكل مقام ما يناسبه، ولكلامه سبحانه المثل الأعلى، فلا يحاكيه كلام الإنسان مهما يعل قدره في البيان.

ولو حاولنا أن نصل إلى سر التعبير ما بلغناه على وجهه الكامل؛ وأقصى ما نقول: هو أنه سبحانه وتعالى أضاف الكسب إلى العبد في الأولى، وإخراج النبات والغراس إليه لتمييز القسمان من الإنتاج، فهما قسمان متقابلان بلا شك، إذ الأول العنصر الواضح فيه كسب العبد، والثاني العنصر الواضح فيه عمل الرب، كما أشرنا، فلهذا التمييز بين القسمين كانت الإضافتان المختلفتان، وليحث سبحانه الناس على النوعين من العمل، ويبان أنهما أساس العمران في هذا الوجود، فكلاهما إصلاح في الأرض وسبيل من سبل الإنتاج فيها؛ وقد كان بعض الاقتصاديين المتقدمين يعتبر طريق

الإنتاج فقط الزراعة، وما تخرجه الأرض؛ والأخرى طرق ثانوية، فالله سبحانه يرشد إلى أن كليهما طريق متميز فيه عمران الأرض والإصلاح فيها، وفوق ذلك فإن إضافة الكسب إلى العبد مع الحث على الإنفاق من طبياته فيه إشارة إلى أن للفقير حقاً معلوماً في كل ما يكسب من مال، سواء أكان بصناعة أو تجارة، أو عمل باليد، أم كان بالبحث في الأرض، وإلقاء الحب، ورجاء الثمار من الرب، فللفقير قدر معلوم في كل هذا.

وبعض المفسرين لا يقصر ما تخرجه الأرض على الزرع والشجر، والحشائش التي يتغذى منها ذات الضرع وذات الحافر، بل يتجاوز إلى ما يكون في باطن الأرض من معادن وفلزات، وسواء مما تقوم عليها الثروات عند بعض الأمم، ومما صار أساس العمران في عصرنا الحاضر؛ فإن أولئك المفسرين الأجلاء أدخلوا ذلك في عموم قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ وإن ذلك صادق بلا ريب، وهو نظر مستقيم. وقد يقول قائل: إن ذلك مودع في باطن الأرض، ولم يخرج الله سبحانه وتعالى إلى ظاهرها، بل الإنسان هو الذي يخرجها، فنقول: ليس المراد بالإخراج هو هذا المظهر الحسي، بل المراد منه التكوين والإنشاء وظهور الأعراض التي تكون

سبيلا لخروجه، فيشمل الإخراج ذلك كما يشمل تكوين الزرع بخروج البذرة من باطن الأرض؛ فإن كليهما يكونه الله تعالى ويظهره لعباده؛ هذا بعوده مستقيماً يراه الحس بما يحمل من ثمر، وما معه من غذاء، وذاك يظهر بأعراضه التي يعرفها الخبراء، وقد يظهر للحس ويبدو للنظر، كما يرى البترول طافياً على الأرض في بعض البلدان، يعلن ما حوته في باطنها من عيون ثرة تفيض به^(١).

والمقصود: أن هذه الطرق الثلاث التي ذكرها القرآن - الزراعة، والتجارة، والصناعة - وهي الطرق الطبيعية لتحصيل الأموال، عمد الاقتصاد القومي لكل أمة تريد أن تحيا حياة استقلالية، رشيدة عزيزة، من الضروري العمل على تركيزها في البلاد، ثم العمل على تنسيقها تنسيقاً يحقق للأمة هدفها الذي يوجبها الإسلام عليها، والذي يجب أن تحصل عليه وتحفظ به وتنمي؛ صوتاً لكيانها، واستقلالها في سلطانها وإدارتها، وإذا كان من قضايا العقل والدين أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وكانت الحياة متوقفة على هذه العمدة الثلاثة، كانت هذه العمدة الثلاثة واجبة، وكان تنسيقها على الوجه الذي يحقق خيرها واجباً.

وكل هذه الأعمال - التجارة والصناعة والزراعة - إذا قام صاحبها بحقها، وتوكل على الله تعالى حق توكله هي عبادة لله، فالصانع في مصنعه، والزارع في مزرعته، والتاجر في متجره إذا قصد وجه الله تعالى، ونفع الناس يكون ذاكراً لله تعالى، عابداً له، وإن المؤمن لا يفرغ قلبه من ذكره، إذا قام بحق الله تعالى، وإن ذكر الله تعالى يصحبه الخوف من الله فيتقي الله تعالى في كل عمل يعمل، ويكون دائماً في حذر من غضب الله تعالى^(٢).

والحكمة من الإشارة إلى هذه الأعمال المباحة في القرآن هي: الدلالة على أن الإسلام دين يجمع بين الدنيا والآخرة، بين إعمار الدنيا وإعمار الآخرة، وقد ذكر الله تعالى ذلك على سبيل الامتنان، مما يدل على إباحة هذه الأعمال، بل على وجوبها أحياناً.

(١) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٢/ ١٠٠٠.

(٢) انظر: المصدر السابق ١/ ٤٦٤.

وتأخيره عن المفعول للإشعار بما بين الرؤيتين من التفاوت ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ والمعنى: أن أعمالكم غير خافية عليهم، كما رأيتم وتبين لكم، ثم إن كان المراد بالرؤية معناها الحقيقي فالأمر ظاهر، وإن أريد بها مآلها من الجزاء خيراً أو شراً فهو خاص بالديني، من إظهار المدح والثناء والذكر الجميل والإعزاز، ونحو ذلك من الأجزاء وأضدادها^(١).

وقد حذف مفعول ﴿اعْمَلُوا﴾ لأجل التعويل على القرينة؛ ولأن الأمر من الله لا يكون بعمل غير صالح، والمراد بالعمل ما يشمل العمل النفساني من الاعتقاد والنية، وإطلاق العمل على ما يشمل ذلك تغليب. وتفرع ﴿فَسِرِّيَ اللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ زيادة في التحضيض، وفيه تحذير من التقصير، أو من ارتكاب المعاصي؛ لأن كون عملهم بمرأى من الله مما يبعث على جعله يرضي الله تعالى؛ وذلك تذكير لهم باطلاع الله تعالى بعلمه على جميع الكائنات، وعطف ﴿وَرَسُولُهُ﴾ على اسم الجلالة؛ لأنه عليه الصلاة والسلام هو المبلغ عن الله، وهو الذي يتولى معاملتهم على حسب أعمالهم، وعطف ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ أيضاً لأنهم شهداء الله في أرضه؛ ولأن هؤلاء لما تابوا قد رجعوا إلى حظيرة جماعة الصحابة، فإن

الحث على العمل الصالح

تتنوع أساليب القرآن الكريم في الحث على الشيء المرغوب فيه، فتارة بالأمر الصريح به، وتارة بالنهي عن ضده، وتارة بذكر ثوابه، ونجد هذا التنوع في الأسلوب في الحث على العمل الصالح، حيث جاء في القرآن على النحو الآتي:

١. الأمر به.

من أساليب القرآن الكريم في الحث على العمل الأمر به.

قال تعالى: ﴿وَقُلْ اَعْمَلُوا فَسِرِّيَ اللَّهِ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ، وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥].

فـ ﴿اعْمَلُوا﴾ أمر بالعمل، وهو من أساليب الحث على الشيء، والأمر هو طلب فعل، وصيغته: افعل، ولتفعل، وهي حقيقة في الإيجاب، وترد مجازاً للمعان آخر. قال أبو السعود: ﴿وَقُلْ اَعْمَلُوا﴾ زيادة ترغيب لهم في العمل الصالح الذي من جملته التوبة، وللأولين في الثبات على ما هم عليه، أي: قل لهم بعد ما بان لهم شأن التوبة: اعملوا ما تشاؤون من الأعمال، فظاھر ترخيص وتخیر، وباطنه ترغيب وترهيب، وقوله: ﴿فَسِرِّيَ اللَّهِ عَمَلَكُمْ﴾ أي: خيراً كان أو شراً، تعليل لما قبله، وتأکید للترغيب والترهيب، والسين للتأكيد، ﴿وَرَسُولُهُ﴾ عطف على الاسم الجليل

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٤/ ١٠٠.

عملوا مثلهم كانوا بمحل الكرامة منهم، وإلا كانوا ملحوظين منهم بعين الغضب والإنكار؛ وذلك مما يحذره كل أحد هو من قوم يرمقونه شزراً ويرونه قد جاء نكراً.

والرؤية المسندة إلى الله تعالى قد تكون حقيقية، وقد تكون رؤية مجازية، وهي تعلق العلم بالواقعات، سواء كانت ذوات مبصرات أم كانت أحداثاً مسموعات، ومعاني مدركات^(١).

ومن الأوامر بالعمل قوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

والظاهر أن الأمر في قوله: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ لآل داود، وإن لم يجر لهم ذكر، ويجوز أن يكون أمراً لداود شرفه الله بأن خاطبه خطاب الجمع^(٢).

وانتصب ﴿شُكْرًا﴾ على أنه مفعول له، أي: اعملوا لله، وابدوه على وجه الشكر لنعمائه، وفيه دليل على أن العبادة يجب أن تؤدي على طريق الشكر، أو على الحال، أي: شاكرين، أو على تقدير: اشكروا شكراً؛ لأن ﴿اعْمَلُوا﴾ فيه معنى اشكروا، من حيث أن العمل للنعم شكر له، ويجوز أن ينتصب باعملوا مفعولاً به، ومعناه: إنا سخرنا لكم الجن يعملون لكم ما شئتم، فاعملوا أنتم

شكراً على طريق المشاكلة^(٣).

وكانه قال: ﴿اعْمَلُوا﴾ ولم يقل: اشكروا؛ لينبه على التزام الأنواع الثلاثة من الشكر بالقلب واللسان وسائر الجوارح^(٤).

وقوله: ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ [سبأ: ١١] إشارة إلى أنه غير مأمور به أمر إيجاب، إنما هو اكتساب، والكسب يكون بقدر الحاجة، وباقي الأيام والليالي للعبادة، فقدّر في ذلك العمل، ولا تشغل جميع أوقاتك بالكسب، بل حصل به القوت فحسب.

ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَأَعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [سبأ: ١١] أي: لستم مخلوقين إلا للعمل الصالح، فاعملوا ذلك، وأكثروا منه، والكسب قدروا فيه، ثم أكد طلب الفعل الصالح بقوله: ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [سبأ: ١١].

وقد ذكرنا مراراً أن من يعمل لملك شغلاً ويعلم أنه بمرأى من الملك يحسن العمل ويتقنه، ويجتهد فيه^(٥).

قال صاحب السراج: كما قال تعالى عقب قوله سبحانه: ﴿إِن أَعْمَلَ سَفِهْتِ﴾ [سبأ: ١١] ﴿وَأَعْمَلُوا صَالِحًا﴾ قال عقب ما تعمله الجن له: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ إشارة إلى أنه لا ينبغي أن يجعل الإنسان نفسه مستغرقة في هذه الأشياء، وإنما الإكثار

(٣) الكشف، الزمخشري ٥٧٣/٣.

(٤) الموسوعة القرآنية، الأبياري ٢٩٩/٨.

(٥) مفاتيح الغيب، الرازي ١٩٦/٢٥.

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥/١١.

(٢) البحر المحیط في التفسير، أبو حيان ٥٢٦/٨.

على الأبدان من الواجبات؛ ولهذا قدم الأمر بالأكل على الأمر بالعمل، فليس من الإسلام تحريم الطيبات التي أحلها الله كما حرم غلاة المتصوفة اللحم، وليس من الإسلام تضعيف الأبدان وتعذيبها، كما يفعل متصوفة الهنادك، ومن قلدهم من المتسبين للإسلام، والميزان العدل في ذلك هو ما كان عليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه رضي الله عنهم، وقد بين ذلك أئمة السنة والأثر رحمهم الله، وفي تقديم الأكل من الطيبات على العمل الصالح تنبيه على أنه هو الذي يثمرها؛ لأن الغذاء الطيب يصلح عليه القلب والبدن، فتصلح الأعمال، كما أن الغذاء الخبيث يفسد به القلب والبدن، فتفسد الأعمال^(٤).

ولم يتوجه الأمر هنا إلى العمل فقط، بل لا بد وأن يكون هذا العمل صالحاً؛ ولهذا قال: ﴿وَأَعْمَلُوا صَالِحًا﴾ وليس الأمر الذي يكون به متميزاً عن سائر البشر إلا العمل الصالح، بأن يكون خالصاً له، والعمل الصالح هو العمل الطيب الذي يكون خيراً محضاً للناس، لا يكون معه شر لا في ذاته، ولا في نيته، والعمل الصالح ما يكون فيه النفع لأكثر عدد ممكن، وما تكون فيه سعادة عاجلة لأكثر الناس، أو سعادة آجلة لعامتهم، ويدخل في هذا دعوتهم إلى

من العمل الصالح الذي يكون شكراً^(١). وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الرُّسُلَ كُلُّوا مِن الطَّيِّبَاتِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١] ففي الآية أمر للرسول بالعمل الصالح، وهو أمر للأتباع، والمعنى: أي: اعملوا بما أمركم الله به، وأطيعوه في أمره ونهيهِ ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ لا يخفى علي شيء من أعمالكم^(٢).

قال النسفي: قوله: ﴿يَتَأْتِيَ الرُّسُلَ كُلُّوا مِن الطَّيِّبَاتِ﴾ هذا النداء والخطاب ليسا على ظاهرهما؛ لأنهم أرسلوا متفرقين في أزمنة مختلفة، وإنما المعنى الإعلام بأن كل رسول في زمانه نودي بذلك، ووصى به؛ ليعتقد السامع أن أمراً نودي له جميع الرسل، ووصوا به، حقيق أن يؤخذ به، ويعمل عليه، أو هو خطاب لمحمد عليه الصلاة والسلام لفضله، وقيامه مقام الكل في زمانه، وكان يأكل من الغنائم، أو لعيسى عليه السلام لاتصال الآية بذكره، وكان يأكل من غزل أمه، وهو أطيب الطيبات، والمراد بالطيبات: ما حل، والأمر للتكليف، أو ما يستطاب ويستلذ، والأمر للترفيه والإباحة^(٣).

وبدا بالأمر بالأكل من الطيبات قبل الأمر بالعمل الصالح؛ لأن الأعمال تتوقف على سلامة الأبدان، فكانت المحافظة

(١) السراج المنير، الشربيني ٢٨٧/٣.

(٢) التفسير الوسيط، الواحدي ٢٩٢/٣.

(٣) مدارك التنزيل، النسفي ٤٧١/٢.

(٤) تفسير ابن باديس ص ٣٥٥.

الهداية والرشاد، والتبليغ عن أمر ربهم^(١). قال في روح البيان: ﴿وَأَعْمَلُوا صَالِحًا﴾ أي: عملاً صالحاً، فإنه المقصود منكم، والنافع عند ربكم، وهذا الأمر للوجوب، بخلاف الأول، وفي أمر الرسل بالعمل الصالح رد وهدم لما قال به بعض المبيحين من أن العبد إذا بلغ غاية المحبة، وصفا قلبه، واختار الإيمان على الكفر من غير نفاق سقطت عنه الأعمال الصالحة من العبادات الظاهرة، وتكون عبادته التفكير، وهذا كفر وضلال، فإن أكمل الناس في المحبة والإيمان هم الرسل خصوصاً حبيب الله مع أن التكاليف بالأعمال الصالحة والعبادات في حقهم أتم وأكمل^(٢).

وقال المراغي: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ أمر الله كل نبي في زمانه بأن يأكل من المال الحلال ما لذ وطاب، وأن يعمل صالح الأعمال؛ ليكون ذلك كفاء ما أنعم به عليه من النعم الظاهرة والباطنة، وهذا الأمر وإن كان موجهاً إلى الأنبياء، فإن أمهم تبع لهم، وكأنه يقول لنا: أيها المسلمون في جميع الأقطار، كلوا من الطيبات أي من الحلال الصافي القوام الحلال ما لا يعصى الله فيه، والصافي ما لا ينسى الله فيه، والقوام ما يمسك النفس،

ويحفظ العقل، واعملوا صالح الأعمال^(٣). والمقصود: أن من أساليب القرآن الكريم في الحث على العمل، الأمر به، بلفظ: «اعملوا» وأمر بالسعي، وهو ضرب من العمل، فقال: ﴿فَأَسْعُوا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الجمعة: ٩].

قال الشافعي رحمه الله: السعي في هذا الموضع هو العمل.

وتلا قوله تعالى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ [الليل: ٤]، ويكون المعنى على هذا: فاعملوا على الماضي إلى ذكر الله من التفرغ له، والاشتغال بالطهارة والغسل، والتوجه إليه بالقصد والنية^(٤).

وأمر بالمشي، وهو عمل أيضاً، فقال: ﴿فَأَمْشُوا فِي مَنَازِكِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

أي: تمتعوا بهذه النعم، ثم إلى ربكم مرجعكم يوم القيامة، ففي الآية الكريمة حث على العمل والكسب في التجارة والزراعة والصناعة، وجميع أنواع العمل.

فقله تعالى: ﴿فَأَمْشُوا﴾ أمر، لكن هل يقتضي الوجوب؟

في الحقيقة إن الأمر في هذا الموطن يقتضي الإباحة، فلا يجب عليك أن تمشي

(١) زهرة التفاسير، أبو زهرة ١٠/٥٠٨٢.

(٢) روح البيان، إسماعيل حقي ٦/٨٧.

(٣) تفسير المراغي ١٨/٢٩.

(٤) التفسير الوسيط، الواحدي ٤/٣٠٠.

وأمر بالسير وهو عمل، فقال: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١١] فهذه الأوامر كلها: «اعملوا، اسعوا، امشوا، سيرا» تحت على العمل، وتأمر به، فالإسلام دين العمل والحركة والإنتاج، وليس دين خمول وكسل وقعود، اعملوا فالدنيا دار عمل، عمل يوصل إلى رضوان الله، وإعمار الأرض، ونفع الخلق.

اعملوا عملاً يوصلكم إلى الآخرة عملاً صالحاً متقبلاً، على وفق مراد الله تعالى؛ ولهذا قال: ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ سيراه ويطلع عليه، وهذه الرؤية ليست مجرد نظر، لا قيمة له، وإنما بعدها حساب وجزاء على هذه الأعمال، فاعملوا شكراً لا كفرًا، اعملوا اعمارًا لا دمارًا، بناءً لا خرابًا، إصلاحًا لا إفسادًا، خيرًا لا شرًا.

ومن أوامر القرآن التي تحت على العمل والسعي، قوله تعالى: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ [الكهف: ١١٠].

فالعمل محمود، شرط أن يكون صالحًا صوابًا، ولا يذم إلا إذا كان خلاف ذلك، فلا ينفع العمل صاحبه إلا بهذا، وإلا فقد ذم الله قومًا عملوا، لكن ما نفعهم عملهم؛ لأنه لم يكن صوابًا، فقال: ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾ [الغاشية: ٣].

عملت عملاً كثيرًا، فنصبت وتعبت، لكنها تصلى نازًا حامية.

في المناكب - إن كان عندك سعة - فالأمر أمر إباحة، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [الجمعة: ١٠].

هل يجب عليك أن تنتشر في الأرض إذا قضيت الصلاة، أو يجوز لك أن تمكث في المسجد؟

فقوله: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ فيه إباحة الانتشار، وليس وجوب الانتشار، لكن على كل فقوله سبحانه: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾ حث على البحث عن الأرزاق في الأرض، ونبي الله داود كان يأكل من عمل يده، وكان يعمل سابغات، وغيره من الأنبياء كذلك، فهذا سلوكهم - عليهم الصلاة والسلام - يأكلون من عمل أيديهم، فكل الأنبياء كانوا يعملون ويجهدون - عليهم الصلاة والسلام -، وكذلك السلف الصالح، كانوا متعففين لا يمدون أيديهم للناس.

بل يذهبون إلى العمل، وهكذا كان الصحابة، فالذين يظنون أن ديننا مبني على مد اليد، وعلى التكاسل وعلى البلادة ظنهم خاطئ، فاليد العليا خير من اليد السفلى، واليد العليا يد المعطي واليد السفلى يد الآخذ، فالعمل ليس بعيب أبدًا، امتن أي مهنة، حتى لو يأخذ أحدكم أحبله فيحتطب، خير له من أن يأتي هذا فيسأله، ويأتي هذا فيسأله.

٢. مدح أجر أهل العمل الصالح.

ومن أساليب الحث على العمل الصالح مدح أجر العاملين، قال تعالى: ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَمِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٤].

فقله: ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَمِلِينَ﴾ أي: فنعمة ثواب المطيعين لله، العاملين له في الدنيا، الجنة لمن أعطاه الله إياها في الآخرة^(١).

والمراد من العمل الإيمان والتقوى في الدنيا، بأداء الفرائض، واجتناب النواهي.

وفي هذه العبارة: ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَمِلِينَ﴾ حث وأي حث على العمل الصالح؛ لصدورها من الله، قال مقاتل: هذا ليس من كلام أهل الجنة، بل الله تعالى لما حكى ما جرى بين الملائكة وبين المتقين من صفة ثواب أهل الجنة، قال بعده: ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَمِلِينَ﴾^(٢).

٣. ضمان أجر العمل الصالح.

ومن أساليب القرآن الكريم في الحث على العمل أنه أخبر: إن الله تعالى لا يضيع عمل عامل، وأن كل عامل يجد ما عمله من خير محضراً، لا ينقص منه شيء، ولو كان قليلاً، قال تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنِّي بِبَعْضِكُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

ومن فوائد الآية أن من يعمل شيئاً من

الطاعات فرضاً أو نفلاً، وهو موحد مسلم، مصدق بمحمد صلى الله عليه وسلم، فلا جحود ولا كفران لعمله، ولا يضيع جزاؤه، فالله حافظ لعمله، كما قال تعالى: ﴿أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنِّي﴾ أي: كل ذلك محفوظ ليجازى به، وفي هذا ترغيب الناس بطاعة الله تعالى^(٣).

ونظير هذا قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ [آل عمران: ٣٠].

قيل: معنى: محضراً على هذا موفراً غير مبخوس، وقيل: ترى ما عملت مكتوباً في الصحف، محضراً إليها، تبشيراً لها، ليكون الثواب بعد مشاهدة العمل^(٤). وهذا كما قال: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾^(٥) [التكوير: ١٤].

وكقوله: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ [الكهف: ٤٩].

فيكون في قوله تعالى: ﴿مُحْضَرًا﴾ يحتمل أن يكون المراد أن تلك الصحف تكون محضرة يوم القيامة، ويحتمل أن يكون المعنى: أن جزاء العمل يكون محضراً، وعلى كلا الوجهين فالترغيب والترهيب حاصلان^(٥).

ومما يدل على ذلك قول الله تعالى:

(٣) التفسير المنير، الزحيلي ١٣٢/١٧.

(٤) البحر المحيط في التفسير، أبو حيان ٩٨/٣.

(٥) مفاتيح الغيب، الرازي ١٩٦/٨.

(١) جامع البيان، الطبري ٢٧١/٢٠.

(٢) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٥٥٥/١٦.

فقوله: ﴿يُؤْتِيَنَّهُمْ﴾ فيه تأكيد للوفاء، وهو القسم فكأنه تأكد الكلام باللامين، وبالقسم، وينون التوكيد الثقيلة، وأكد أيضا بالتعبير بـ ﴿رَبِّكَ﴾ أي: الذي خلقك وخلقهم، وقام على هذا الوجود، وإذا كان هذا الخالق الحي القيوم هو الذي يعد بالتوفية فإنها واقعة لا محالة.

وقوله: ﴿أَعْمَلُهُمْ﴾ أي: جزاء أعمالهم، ولكنه سبحانه حذف الجزاء، وأضاف الجزاء إلى الأعمال للإشارة إلى أن الجزاء وفاق العمل، فكأنهما شيء واحد؛ إذ يكون عادلاً تمام العدل، يوم تجد كل نفس عملها محضراً، وإن العدل الحقيقي يقتضي المساواة بين العمل والجزاء، ويقتضي العلم، وقد أشار إلى العدل بالمساواة دين الجزاء والعمل حتى كأنه هو^(٤).

ومما يدل على ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧] فإن كان مثقال الذرة من الخير لا يضيع عند الله فهذا مما يدعو إلى العمل، والازدياد منه، والحرص عليه؛ لأن ثمرته محفوظة، وجزاءه مضموناً عند الله تعالى.

والمقصود من هذا كله: أن في الآيات السابقة كلها حث على العمل؛ إذ قد ضمن الله فيها للعباد بحفظ أعمالهم، وتوفيتهم

﴿وَلَنْ يَرَىٰ رِبْكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٥].

يقول: ولن يظلمكم أجور أعمالكم، فينقصكم ثوابها، من قولهم: وترت الرجل إذا قتلت له قتيلاً، فأخذت له مالا غصباً^(١).

ومن فوائد الآية: أن الله لا ينقص العباد من أعمالهم شيئاً، بل سيوفهم أجورهم، ويزيدهم من فضله، خصوصاً عبادة الجهاد، فإن النفقة تضاعف فيه إلى سبع مائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، فإذا عرف الإنسان أن الله تعالى لا يضيع عمله وجهاده، أوجب له ذلك النشاط، وبذل الجهد فيما يترتب عليه الأجر والثواب، فكيف إذا اجتمعت هذه الأمور الثلاثة، فإن ذلك يوجب النشاط التام، فهذا من ترغيب الله لعباده، وتشجيعهم، وتقوية أنفسهم على ما فيه صلاحهم وفلاحهم^(٢).

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢].

فقوله: ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ أي: لا يخاف ابن آدم يوم القيامة أن يظلم، فيزاد عليه في سيئاته، ولا يظلم فيهمضم في حسناته^(٣).

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلَّا تَنَا يُؤْفِيَنَّهُمْ رَبِّكَ أَعْمَلُهُمْ إِنَّهُمْ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [هود: ١١١].

(١) جامع البيان، الطبري ٢١/٢٢٩.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٩٠.

(٣) جامع البيان، الطبري ١٦/١٧٦.

(٤) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٧/٣٧٦١.

إياها كاملة غير منقوصة ولا مبخوسة، فليزدادوا إذن من الخيرات والطاعات والأعمال الصالحة.

٤. قرن العمل بالإيمان بالله.

ومن أساليب القرآن الكريم في الحث على العمل الصالح أنه قرنه بالإيمان، الذي هو أعظم الأشياء، كما في قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٨٢] وهذا الاقتران دلالة على أهمية العمل الصالح، وحث عليه.

٥. الإخبار بأن العمل الصالح سبب في دخول الجنة.

ومن أساليب القرآن الكريم في الحث على العمل أنه جعله سبباً في دخول الجنة، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٢]. وقال: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢].

ولا تعارض بين هذه الآية والحديث الذي بين فيه النبي صلى الله عليه وسلم أنه لا يدخل أحد الجنة إلا بفضل الله لا بعمله^(١)؛ لأن الباء في الحديث عوضية،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل ٩٨/٨، رقم ٦٤٦٣ ومسلم في صحيحه، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى،

وفي الآية سببية.

فإن قيل: يلزم على هذا أن يقطع بحصول الجنة لجميع العصاة، وأن يقطع بأنه لا عقاب عليهم؟

أجيب: بأننا نقطع بحصول الجنة ولا نقطع بنفي العقاب عنهم؛ لأنهم إذا عذبوا مدة، ثم نقلوا إلى الجنة بقوا فيها أبد الآباد، فكانت معدة لهم^(٢).

والمقصود: أن مما يرغب في العمل أن الله تعالى جعله سبباً في دخول جنته، التي يطمع فيها الطامعون، ويرغب فيها الراغبون. ٦. الإخبار بأن العمل الصالح يرفعه الله إليه.

ومن أساليب القرآن في الحث على العمل الإخبار بأن العمل الصالح يرفع إلى الله، قال الله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]. فقله: ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: ما روي عن الحسن وسعيد بن جبير وعكرمة والضحاك وغيرهم أنهم قالوا: والعمل الصالح يرفعه، أي: العمل الصالح يرفع الكلم الطيب. والقول الثاني: قول قتادة قال: والعمل الصالح يرفعه، أي: يرفعه الله.

٢٨١٦/٤، رقم ٢١٧٠. (٢) السراج المنير، الشريفي ٢١٢/٤.

يقبل عمل إلا أن يكون صادرًا عن التوحيد، وعائد الذكر يرفع وينصب، وهذا التأويل اختيار نحاة الكوفة، وقيل: الهاء كناية عن العمل، والرفع من صفة الله سبحانه، أي يرفعه الله^(٤).

والمقصود: أن مما يرغب بالعمل ويحث عليه أن الله تعالى أخبر أنه يرفع العمل الصالح، وإن اختلف العلماء في حكم هذه الكناية، ومعنى الآية، إلا أن فيها رفعة لهذا العمل الصالح.

٧. الإخبار بأن العمل الصالح يقرب من الله زلفى.

ومن وسائل الحث على العمل أن الله تعالى أخبر أن العمل الصالح يقرب منه زلفى ويزداد به العبد من الله حسنًا.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِآلِي تَقَرُّكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧].

يعني: قولكم: نحن أكثر أموالنا فنحن أحسن عند الله حالًا ليس استدلالًا صحيحًا، فإن المال لا يقرب إلى الله، ولا اعتبار بالتعزز به، وإنما المفيد العمل الصالح بعد الإيمان، والذي يدل عليه هو أن المال والولد يشغل عن الله، فيبعد عنه فكيف يقرب منه، والعمل الصالح إقبال

(٤) الكشف والبيان، الثعلبي ٨/ ١٠٢.

والقول الثالث: والعمل الصالح يرفعه الكلم الطيب^(١). عكس الأول.

ولعل مما يؤيد القول الثاني قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ [الأعراف: ٤٠].

يقول تعالى ذكره: إن الذين كذبوا بحجبنا وأدللنا فلم يصدقوا بها، ولم يتبعوا رسلنا ﴿وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾ أي: وتكبروا عن التصديق بها، وأنفوا من اتباعها، والانقياد لها تكبرًا، لا تفتح لهم لأرواحهم إذا خرجت من أجسادهم أبواب السماء، ولا يصعد لهم في حياتهم إلى الله قول ولا عمل؛ لأن أعمالهم خبيثة، وإنما يرفع الكلم الطيب والعمل الصالح، وقال بعضهم: معناه: لا تفتح لأرواح هؤلاء الكفار أبواب السماء^(٢).

أو يكون في قوله: ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ إشارة إلى بقائه وارتقائه ﴿وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ﴾ أي: العمل السيئ، وهو يبور، إشارة إلى فناءه^(٣).

وقال بعض أهل المعاني: معنى: ﴿يَرْفَعُهُ﴾ أي: يجعله رفيعًا، ذا وزن وقيمة، كما يقال: طود رفيع ومرتفع، وقال قوم: هذه الكناية راجعة إلى العمل، يعني: أن الكلم الطيب يرفع العمل، فلا يرفع ولا

(١) تفسير السمعاني ٤/ ٣٤٩.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٠/ ١٨٢.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/ ٢٢٧.

على الله، واشتغال بالله، ومن توجه إلى الله وصل، ومن طلب من الله شيئاً حصل^(١).

والمقصود: أن في الآية تعريض بالعمل الصالح، فالمال لا يخلد صاحبه، لكن العمل الصالح هو الذي يخلد الإنسان، فينبغي للعاقل أن يكب عليه، ويسعى للأخرة حيث الخلود الحقيقي، فالمخلد الحقيقي ليس هو المال، وإنما هو العمل الصالح الذي يخلد صاحبه في الجنة.

٨. الإخبار بأن الإنسان خلق من أجل العمل الصالح.

ومن وسائل الحث على العمل أن الله تعالى أخبر أن الإنسان خلق من أجل العمل والعبادة.

قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

فقوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي: خلق الموت والحياة وخلق السموات والأرض لنفع عباده الذين خلقهم ليعبدوه، ولا يشركوا به شيئاً، ولم يخلق ذلك عبثاً، وقوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ أي: ليختبركم أيكم أحسن عملاً، ولم يقل: أكثر عملاً، بل أحسن عملاً، ولا يكون العمل حسناً حتى يكون خالصاً لله عز وجل، على شريعة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمتى فقد العمل واحداً من هذين الشرطين حبط

وبطل^(٢).

٩. الإخبار بمضاعفة العمل الصالح إلى أضعاف كثيرة.

ومن وسائل الحث على العمل أن الله تعالى أخبر أن الحسنة بعشر أمثالها إلى أضعاف كثيرة.

قال تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠].

ففي هذه الآية ترغيب في العمل الصالح، وترغيب في الطاعة، حيث جعل الحسنة بعشر أمثالها.

١٠. ذم أهل العمل السيء.

ومن وسائل الحث على العمل الصالح ذم أهل العمل السيء.

قال الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْفِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤].

فجملة: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ ذم لحسابانهم ذلك، وإبطال له، فهي مقرة لمعنى الإنكار في جملة ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ فلها حكم التوكيد، فلذلك فصلت^(٣).

وتوعد صاحب العمل السيء بالعذاب

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/٢٦٦.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٠/٢٠٧.

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٥/٢٠٩.

أثر العمل في الدنيا

للعمل آثار، سواء على مستوى الفرد، أو على مستوى المجتمع، وسيتم الحديث عنها في النقاط الآتية:

أولاً: أثر العمل الصالح:

للعمل الصالح فوائد جلية، وآثار عظيمة وثمار كثيرة، فمن آثاره على الفرد:

١. يرفع العبد ويقربه إلى الله.

من ثمار وآثار العمل الصالح أنه يرفع العبد ويقربه إلى الله زلفى، قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ﴾ [سبأ: ٣٧].

يعني: إن قولكم نحن أكثر أموالاً وأولاداً فنحن أحسن حالاً عند الله استدلالاً صحيحاً، فإن المال لا يقرب إلى الله، وإنما المفيد العمل الصالح بعد الإيمان^(١).

ومما يدل على ذلك قولهم بعد ذلك: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الدَّيْنِ الَّتِي كُنَّا نَقْرُبُكَ﴾ [فاطر: ٣٧].

بإضمار القول، وتقييد العمل الصالح بالوصف المذكور للتحسر على ما عملوه من غير الصالح، والاعتراف به، والإشعار بأن استخراجهم لتلافيه، وأنهم كانوا يحسبونه صالحاً، والآن تبين خلافه^(٢).

الشديد، فقال: ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُورُونَ السَّبْتَاتِ لَمْ يُدْعَوْا إِلَىٰ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [فاطر: ١٠].

والمقصود: أن في ذم العمل السيء وأهله دعوة إلى العمل الصالح، وترغيب فيه، فالآيات التي جاءت في ذلك ترغيب العبد في العمل الصالح وإتقانه، والابتعاد عن العمل السيء وأهله.

(١) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٦/ ٧٢.

(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧/ ١٥٤.

وقد سبق أن في قوله: ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ أقوال، منها: قول قتادة، قال: ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ أي: يرفعه الله^(١).

وقال تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَةُ الصَّالِحَةُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦].

قررت الآيات السابقة أن العمل الصالح هو الباقي النافع، وأن المال والبنين ليسوا إلا زينة لمدة قصيرة ثم تزول، فجاءت هذه الآيات منذرة بالقيامة وهولها، وكيف يجردهم مما كانوا يتفاخرون به، وكيف يعرضون على النار، ويواجهون بكتب أعمالهم التي أحصت كل شيء عليهم^(٢).
ففي الآية تعريض بالعمل الصالح، بالإخبار بأن المال لا يخلد صاحبه وإنما العمل الصالح هو الذي يخلد الإنسان، فينبغي للعاقل أن يكثر من العمل الصالح، ويسعى للآخرة، حيث الخلود الحقيقي، والسعادة الحقيقية، والنعيم المقيم.

٢. مضاعفة العمل.

ومن ثمار وآثار العمل الصالح على العبد أنه سبب في مضاعفة الأجر، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْرَفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [الشورى: ٢٣].

ففي قوله: ﴿وَمَنْ يَفْرَفْ﴾ أي: من يعمل خيراً نزيد له، والاقتراف: العمل^(٣).
﴿نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حَسَنًا﴾ أي: نضاعف عمله ذلك الحسن، فنجعل له مكان الواحد عشرًا إلى ما شئنا من الجزاء والثواب^(٤).
٣. تبديل سيئاته حسنات.

ومن ثمار وآثار العمل الصالح على العبد أنه سبب في تبديل السيئات إلى حسنات، قال الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٧٠].

قال الواحدي: ﴿فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ قال: التبديل في الدنيا طاعة الله بعد عصيانه، وذكر الله بعد نسيانه، والخير يعمل به بعد الشر.

وقال الحسن: أبدلهم بالعمل السيئ العمل الصالح، وبالشرك إخلاصًا وإسلامًا، وبالفجور إحسانًا.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد والسدي: ﴿يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ يبدلهم الله بقبائح أعمالهم في الشرك محاسن الأعمال في الإسلام وبالشرك إيمانًا، وبقتل النفس التي حرم الله قتل المشركين، وبالزنا عفة وإحسانًا.

(٣) جامع البيان، الطبري ٥٣١/٢١.

(٤) المصدر السابق ٥٠٢/٢٠.

(١) تفسير السمعاني ٣٤٩/٤.

(٢) التفسير الحديث، محمد دروزة ٧٢/٥.

الصالحين بشارتين:

البشارة الأولى: أجر كبير، ونكر الأجر لعظمه، ولتذهب النفس في تقديره مذاهب شتى، مع ملاحظة أنه أجر وثواب، ثم وصفه سبحانه وتعالى بالكبر الذي لا حد له.

البشارة الثانية: وهي قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الإسراء: ١٠].

وكيف تكون هذه بشارة لأهل الإيمان؟
الجواب عن ذلك: أن البشارة بالنجاة منها، وأنهم لم يتردوا تردية الذين لا يؤمنون بالآخرة، بل وقاهم الله تعالى، وبذلك يتبين أن ذكر عذاب الذين لا يؤمنون جاء تبعاً لإيمان الذين آمنوا وعملوا الصالحات^(٢).

فهذه هي قاعدة الإسلام الأصلية في العمل والجزاء، فعلى الإيمان والعمل الصالح يقيم بناءه، فلا إيمان بلا عمل، ولا عمل بلا إيمان، الأول مبتور، لم يبلغ تمامه، والثاني مقطوع، لا ركيزة له، وبهما معاً تسير الحياة على التي هي أقوم، وبهما معاً تتحقق الهداية بهذا القرآن.

فأما الذين لا يهتدون بهدي القرآن، فهم متروكون لهوى الإنسان، الإنسان العجول الجاهل بما ينفعه وما يضره، المندفع الذي لا يضبط انفعالاته، ولو كان من ورائها الشر

وذهب قوم إلى أن الله تعالى يمحو السيئة عن العبد، ويثبت له بدلها الحسنة، وهو قول سعيد بن المسيب ومكحول وعمر بن ميمون^(١).

وهو معنى قوله: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤].

٤. الحصول على الأجر الكبير.

ومن ثمار العمل الصالح على العبد الحصول على الثواب العظيم.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩].

فذكر الله سبحانه وتعالى ما هنا حالتين:
أولاهما: الإيمان.

وثانيتها: العمل الصالح.

وقرن الإيمان بالعمل الصالح لتلازمهما، وإن الإيمان الكامل والإذعان الصادق يلزمهما العمل الصالح لا محالة، وقال تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ بالجمع لتنوعها وكثرتها، فهي وإن ضبطها ضابط الصلاح مفترقة متنوعة، فالإصلاح بين الناس، والمعاملة الحسنة، والوفاء بالعهد، وغير ذلك من مكارم الأخلاق، والبعد عن ضلالها.

وذكر سبحانه أنه يبشر المؤمنين

(١) التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٣٤٧.

(٢) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٨/ ٤٣٤١.

له^(١).

٥. الحياة الطيبة.

ومن آثار العمل الصالح على العبد أنه يحيى به حياة طيبة، قال الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧].

أي: من عمل عملاً صالحاً وهو مؤمن في فاقة أو ميسرة، فحياته طيبة، ومن أعرض عن ذكر الله فلم يؤمن، ولم يعمل صالحاً، عيشته ضنكة، لا خير فيها.

وقيل: الحياة الطيبة السعادة.

وقيل: بل معنى ذلك: الحياة في الجنة^(٢). وكل هذا يدخل في معنى الآية.

قال الزمخشري: وذلك أن المؤمن مع العمل الصالح موسراً كان أو معسراً، يعيش عيشاً طيباً، إن كان موسراً فلا مقال فيه، وإن كان معسراً فمعه ما يطيب عيشه، وهو القناعة والرضا بقسمة الله، وأما الفاجر فأمره على العكس: إن كان معسراً فلا إشكال في أمره، وإن كان موسراً فالحرص لا يدعه أن يتهنأ بعيشه^(٣).

ثم هل هذه الحياة الطيبة تحصل في الدنيا أو في القبر أو في الآخرة؟ والجواب فيه أقوال:

الأول: الأقرب أنها تحصل في الدنيا، بدليل أنه تعالى أعقبه بقوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

ولا شبهة في أن المراد منه ما يكون في الآخرة.

ولقائل أن يقول: لا يبعد أن يكون المراد من الحياة الطيبة ما يحصل في الآخرة، ثم إنه مع ذلك وعدهم الله على أنه إنما يجزيهم على ما هو أحسن أعمالهم، فهذا لا امتناع فيه^(٤).

فالعمل الصالح مع الإيمان جزاؤه حياة طيبة في هذه الأرض، لا يهم أن تكون ناعمة رغدة ثرية بالمال، فقد تكون به، وقد لا يكون معها، وفي الحياة أشياء كثيرة غير المال الكثير تطيب بها الحياة في حدود الكفاية، منها: الاتصال بالله، والثقة به، والاطمئنان إلى رعايته وستره ورضاه، ومنها: الصحة والهدوء والرضا والبركة، وسكن البيوت ومودات القلوب، ومنها: الفرح بالعمل الصالح، وآثاره في الضمير، وآثاره في الحياة، وليس المال إلا عنصراً واحداً يكفي منه القليل، حين يتصل القلب بما هو أعظم وأزكى وأبقى عند الله.

وأن الحياة الطيبة في الدنيا لا تنقص من الأجر الحسن في الآخرة، وأن هذا

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٢١٥.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٧/ ٢٩١.

(٣) الكشف، الزمخشري ٢/ ٦٣٣.

(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٠/ ٢٦٧.

في الدنيا هو الحياة الطيبة، وهي التي تشمل: وجوه الراحة المختلفة، من رزق حلال طاهر، وسعادة غامرة، وطمأنينة نفس، وهدوء بال، ورضا وقناعة.

قال ابن عطية: ظاهر هذا الوعد بالجزاء الحسن أنه في الدنيا، وإن طيب الحياة اللازم للصالحين، إنما هو بنشاط نفوسهم، ونبلها، وقوة رجائهم، والرجاء للنفس أمر ملذ، فبهذا تطيب حياتهم، وبأنهم احتقروا الدنيا، فزالت همومها عنهم، فإن انضاف إلى هذا مال حلال، وصحة، أو قناعة، فذلك كمال، فيكون قوله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً﴾ معناه: لنعطيه ما تطيب به حياته: وهو القناعة والرضا^(٣).

٦. حفظ الذرية بعد الموت.

إن الوعد على العمل الصالح ليس مختصاً بالآخرة، بل يدخل فيه أمور الدنيا حتى في الذرية بعد موت العامل.

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٨٢].

قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ قال: حفظا بصلاح

(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/٤١٩.

الأجر يكون على أحسن ما عمل المؤمنون العاملون في الدنيا، ويتضمن هذا تجاوز الله لهم عن السيئات، فما أكرمه من جزاء^(١).

والمقصود: أن في هذه الآية الكريمة حصاً على العمل الصالح لجميع الناس ذكوراً وإناثاً، وأن العمل الصالح مع الإيمان جزاؤه حياة طيبة في هذه الدنيا، يحيا فيها مطمئناً، في رعاية الله، وعند الله في الآخرة له الجزاء الأوفى، والنصيب العظيم من الأجر والثواب، وقد كرر الله قوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ للترغيب في العمل الصالح.

فيجمع الله له حظين من الجزاء، حظاً في الدنيا بالحياة الطيبة الهائلة، وحظاً في الآخرة.

ويبدو أن تفسير الحياة الطيبة هنا بأنها الحياة الدنيوية أرجح؛ لأن الحياة الأخروية جاء التصريح بها بعد ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فلو فسرنا الحياة الطيبة بالحياة الأخروية لكان في الآية الكريمة ما يشبه التكرار، ولكننا لو فسرناها بالحياة الدنيوية لكانت الآية الكريمة مبينة لجزاء المؤمنين في الدارين^(٢).

فيكون الجزاء لمن آمن وعمل صالحاً

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/٢١٩٣.

(٢) التفسير الوسيط، طنطاوي ٨/٢٣٢.

أبيهما، وما ذكر منهما صلاح^(١).

وعن محمد بن المنكدر قال: إن الله عز وجل ليحفظ بالرجل الصالح ولده وولد ولده، وعشيرته التي هو فيها، والدويرات حوله، فما يزالون في حفظ الله وستره.

وعن سعيد بن المسيب أنه كان إذا رأى ابنه قال: أي بني لأزيدن صلاتي من أجلك، رجاء أن أحفظ فيك، ويتلو هذه الآية^(٢).

والمقصود: أن من آثار وثمار العمل الصالح حفظ ذرية الرجل بعد موته بعمله الصالح، كما دلت الآية السابقة على ذلك.

ومن آثار العمل الصالح على المجتمع:
١. حصول الأمن والتمكين والاستخلاف.

من آثار العمل الصالح على المجتمع أنه طريق إلى الأمن والاستخلاف والتمكين.

قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٥٥].

قال ابن كثير: «هذا وعد من الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم بأنه سيجعل

أمته خلفاء الأرض، أي: أئمة الناس والولاية عليهم، وبهم تصلح البلاد، وتخضع لهم العباد، وقد فعل تبارك وتعالى ذلك، فإنه لم يمت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى فتح عليه مكة وخيبر والبحرين، وسائر جزيرة العرب، وأرض اليمن بكمالها، وأخذ الجزية من مجوس هجر، ومن بعض أطراف الشام، وهاداه هرقل ملك الروم، وصاحب مصر والإسكندرية - وهو المقوقس - وملوك عمان، والنجاشي ملك الحبشة الذي تملك بعد أصحمة - رحمه الله وأكرمه^(٣).

وفي تصدير الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾ بشارة عظيمة للمؤمنين بتحقيق وعده تعالى؛ إذ وعد الله لا يتخلف، كما قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٦].

والخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين، و﴿مِنْ﴾ بيانية، أي: وعد الله تعالى بفضله وإحسانه الذين صدقوا في إيمانهم من عباده، والذين جمعوا مع الإيمان الصادق والعمل الصالح، وعدهم ليستخلفهم في الأرض، أي: ليجعلنهم فيها خلفاء، يتصرفون فيها تصرف أصحاب العزة والسلطان والغلبة، بدلاً من أعدائهم الكفار. فهذا هو الوعد الأول للمؤمنين: أن يجعلهم سبحانه خلفاء في الأرض، كما

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٩١/١٨، تفسير ابن أبي حاتم ٢٣٧٥/٧.

(٢) الكشف والبيان، الثعلبي ١٨٨/٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧٧/٦.

فاستحقوا أن يسودوا العالم، وأن يحكموا غيرهم، فوعدهم بالاستخلاف، ووعدهم بأن يمكن لهم هذا الدين العظيم الذي ارتضاه لهم.

فإذا كان الله عز وجل وعد المؤمنين فالوعد عام، فإذا نص على هؤلاء فالوعد عاجل في التنفيذ: أنه يا من أنتم آمتتم بالنبي صلى الله عليه وسلم، وابتليتم وتعبتم، وأوذيتم في سبيل الله عز وجل سنمكن لكم.

٢. طريق إلى النعم والخيرات.

ومن آثار العمل الصالح على المجتمع أنه يثمر حصول النعم والخيرات.

قال تعالى: ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الحج: ٥٠].

وقال: ﴿يَجْزِيكَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَوْلِيَاكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [سبأ: ٤].

فذكر الله تعالى منهم أمرين الإيمان والعمل الصالح، وذكر لهم أمرين المغفرة، والرزق الكريم، فالمغفرة جزاء الإيمان، فكل مؤمن مغفور له؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ١١٦].

والرزق الكريم مرتب على العمل الصالح، وهذا مناسب، فإن من عمل لسيد

جعل عباده الصالحين من قبلهم خلفاءه، وأورثهم أرض الكفار وديارهم.

وأما الوعد الثاني فيتجلى في قوله تعالى: ﴿وَلَيَمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾ والتمكين: التثبيت والتوطيد والتمليك، يقال: تمكن فلان من الشيء إذا حازه، وقدر عليه.

أي: وعد الله المؤمنين بأن يجعلهم خلفاءه في أرضه، وبأن يجعل دينهم وهو دين الإسلام الذي ارتضاه لهم ثابتاً في القلوب، راسخاً في النفوس، باسطاً سلطانه على أعدائه، له الكلمة العليا في هذه الحياة، ولمخالفه الكلمة السفلى.

وأما الوعد الثالث فهو قوله سبحانه: ﴿وَلَيَسِّدَنَّ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾.

أي: وعدهم الله تعالى بالاستخلاف في الأرض، ويتمكين دينهم، وبأن يجعل لهم بدلاً من الخوف الذي كانوا يعيشون فيه أمناً واطمئناناً وراحة في البال، وهدوءاً في الحال^(١).

والمقصود: أن هذه ثلاثة أشياء، وعد الله عز وجل بها المؤمنين: الاستخلاف في الأرض، فيعطيه الله عز وجل الحكم فيحكمون بشرعه سبحانه وتعالى، فقد آمنوا، وعملوا الصالحات، وتربوا على العقيدة الصحيحة، وعلى العمل الصالح،

(١) التفسير الوسيط، طنطاوي ١٤٦/١٠.

كريم عملاً فعند فراغه من العمل لا بد وأن ينعم عليه، وتقدم وصف الرزق بالكريم أنه بمعنى ذا كرم، أو مكرم، أو لأنه من غير طلب بخلاف رزق الدنيا، فإنه إن لم يطلب ويتسبب إليه لا يأتي.

فإن قيل: ما الحكمة في تمييزه الرزق بوصفه بأنه كريم، ولم يصف المغفرة؟

فالجواب: لأن المغفرة واحدة، وهي للمؤمنين، وأما الرزق فمنه شجرة الزقوم والحميم، ومن الفواكه والشراب الطهور، فميز الرزق لحصول الانقسام فيه، ولم يميز المغفرة لعدم الانقسام فيها^(١).

والمقصود: أن من ثمار العمل الصالح المغفرة والرزق والسعة والرخاء، التي إن حصلت في أي مجتمع بجانب الإيمان والعمل الصالح كان مجتمعاً مثالياً سعيداً.

٣. الحصول على الخيرية.

ومن آثار العمل الصالح على المجتمع أنه طريق إلى خيرية المجتمع، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٧].

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ﴿أُولَٰئِكَ﴾ المنعوتون بهذا هم خير البرية^(٢). أي: أفضل الخليفة؛ لأنهم بمتابعة

الحق عند معرفته بالدليل القائم عليه قد حققوا لأنفسهم معنى الإنسانية التي شرفهم الله بها، وبالعمل الصالح قد حفظوا نظام الفضيلة الذي جعله الله قوام الوجود الإنساني، وهدوا غيرهم بحسن الأسوة إلى مثل ما هدوا إليه من الخير والسعادة، فمن يكون أفضل منهم؟^(٣).

قال الشافعي رحمه الله: والخير كلمة يعرف ما أريد منها بالمخاطبة بها، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ الآية، ففعلنا أنهم: خير البرية بالإيمان وعمل الصالحات، لا بالمال^(٤).

والمقصود: أن الذين يجمعون بين الإيمان والعمل الصالح استحقوا أربعة أنواع من الجزاء:

وصفهم بأنهم خير البرية، ودخول جنات عدن تجري من تحتها الأنهار، والخلود فيها أبداً، ورضوان الله عليهم أي: رضي أعمالهم، ورضاهم عن الله، أي: رضاهم بشواب الله تعالى.

وأن المجتمع الذي يحرص أبنائه على الأعمال الصالحة لحري أن يكون مجتمع خير وصلاح، ومجتمع نور وهداية، بعكس المجتمع الغارق أهله بالأعمال السيئة، فهو

(٣) محاسن التأويل، القاسمي ٥٢٤/٩.

(٤) تفسير الشافعي ١٤٥٦/٣.

(١) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٠/١٦.

(٢) فتح القدير، الشوكاني ٥٨١/٥.

يُجَزَّ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٣﴾ [النساء: ١٢٣].

فقوله: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ أكثر المفسرين: على أن هذا في المسلمين وأهل الكتاب، وذلك أن المسلمين قالوا: نحن أهدى منكم. وقال أهل الكتاب: نحن أهدى منكم. فأنزل الله هذه الآية، يقول: ليس ثواب الله بالأمنية ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ قال الحسن: هذا في الكفار خاصة؛ لأنهم يجازون بالعقاب على الصغير والكبير، والمؤمن يجازى بأحسن عمله، ويتجاوز عن سيئاته، ثم قرأ: ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ [الزمر: ٣٥] الآية.

وقيل: هذا عام في كل من عمل سوءًا من مسلم وكافر، ولكن المؤمن يجزى به في الدنيا (٣).

وأخبر الله تعالى أن العمل السيئ يحيط بصاحبه، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣] أي: لا تنزل عاقبة السوء إلا بمن أساء، قال الكلبي: يحيق بمعنى: يحيط، والحق: الإحاطة، يقال: حاق به كذا إذا أحاط به، وهذا هو الظاهر من معنى «يحيق» في لغة العرب، ولكن قطرب فسره هنا بـ«ينزل» (٤).

(٣) التفسير الوسيط، الواحدي ١١٩/٢.

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣٥٩/١٤، فتح القدير، الشوكاني ٤٠٨/٤.

مجتمع بعيد عن الخيرية، خالٍ من الفضيلة. ثانيًا: أثر العمل السيئ:

للعمل السيئ آثار سيئة، وعواقب وخيمة، على الفرد وعلى المجتمع. ومن آثاره على الفرد:

١. أنه يسوء صاحبه يوم القيامة. من آثار العمل السيئ أنه يسوء صاحبه، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُتَضَرًّا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠] أي: لكرامتها إياه.

فيود أهل الطاعات أن لو استكثرُوا منها، ويود أهل المخالفات أن لو كبَحُوا لجامهم عن الركض في ميادينهم (١).

قال السمعاني: أي: غاية مديدة. قال السدي: ما بين المشرق والمغرب. وفي الأخبار: أن الأعمال يؤتى بها يوم القيامة على صور، فما كان منها حسنًا، فعلى الصورة الحسنة، وما كان قبيحًا فعلى الصورة القبيحة (٢).

٢. أنه سبب للعقاب والعذاب. من آثار العمل السيئ أنه سبب للعذاب والعقاب، قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا

(١) لطائف الإشارات، القشيري ٢٣٤/١.

(٢) تفسير السمعاني ٣١٠/١.

فالعامل السيء سبب في نزول العقاب وحلول العذاب قال تعالى: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٣٩] أي: بسبب كسبكم، وهو العمل السيء.

كما قال تعالى: ﴿فَلَنَذِقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٧].

٣. أنه سبب الذل والهوان.

ومن آثار العمل السيء أنه سبب الذل، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَمْثِلُهَا وَيَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ كَانَمَا أَغَشِيَتْ وَجُوهَهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مَظْلَمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس: ٢٧].

فقلوه: ﴿جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَمْثِلُهَا﴾ قال الفراء: فلهم جزاء السيئة بمثلها، والمعنى: أنهم يجزون بمثل ما عملوا ﴿وَيَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ يصيبهم الذل والخزي والهوان ﴿مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ﴾ ما لهم من عذاب الله من مانع يمنعهم^(١).

﴿كَانَمَا أَغَشِيَتْ وَجُوهَهُمْ﴾ أي: كأنما ألبست وجوههم ﴿قِطْعًا﴾ أي: أجزاء ﴿مِنْ اللَّيْلِ مَظْلَمًا﴾ لشدة السواد والظلمة التي على وجوههم والعياذ بالله بسبب الشرك والمعاصي، فكانهم لبسوا ثوبًا أسودًا غطوا وجوههم به، والقصد الإخبار بأبدع تشبيه

عن سواد وجوههم.

وقال قبلها في المقابل: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وَجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس: ٢٦].

والمقصود: أن في الآيات بيانًا لمصير المحسنين والمسيئين في الآخرة، فلأولين الحسنى وزيادة، فلا يغشى وجوههم قتر النار، ولا تتلوث بسخامها، ولا يصيبهم هوان، ويكونون خالدين في الجنات، وللآخرين جزاء سيء من جزاء عملهم، ولهم الذل والهوان، ولن يجدوا لهم من الله عاصمًا، ويشد سواد وجوههم من القتر والسخام، ويكونون خالدين في النار.

والآيات جاءت كما هو المتبادر معقبة على سابقتها، وهي والحالة هذه متصلة بها، واستمرار لها، وقد انطوى فيها تنويه بالمهتدين المحسنين، وتطمين لهم، وإنذار للكفار المسيئين، وتنديد لهم، وإطلاق الكلام فيها يجعلها كسابقاتها عامة التوجيه والتبشير والإنذار لكل الناس في كل ظرف كما هو المتبادر^(٢).

ثالثًا: أثر العمل المباح:

كما أن للعمل الصالح والسيء أثرًا على صاحبه، فإن العمل المباح له أثر على صاحبه

(٢) التفسير الحديث، محمد دروزة ٣/ ٤٦١.

(١) التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٥٤٥.

أثر العمل في الآخرة

يوم القيامة هو يوم الجزاء الذي يجد فيه العامل جزاء ما عمله، وما كسبه، ومن آثار العمل في الآخرة:

١. إحصاء العمل في كتاب العبد.
أخبر الله تعالى أنه يحصي عمل العبد في كتاب.

قال الله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ يَوْمَئِذٍ إِنَّ هَذَا الْكِتَابَ لَا يَعْدُرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ [الكهف: ٤٩].

وقال: ﴿لَقَدْ أَحْصَيْتُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ [مريم: ٩٤].

وقال: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنْشَرُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المجادلة: ٦].

وقال: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ [النبا: ٢٩].

وقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتِ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ [يس: ١٢].

والإحصاء والكتب والحساب والعد والحفظ بمعنى متقارب: وهو الضبط^(٣) والعد^(٤).

كذلك، فالعمل في التجارة والصناعة والزراعة له آثار وثمار تعود على أصحابها، ومن هذه الآثار: الأكل من رزق الله.

قال تعالى: ﴿فَاتَمَشُوا فِي مَنَازِلِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَيَا أَيُّهَا النَّشُورُ﴾ [الملك: ١٥] وقال: ﴿فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠].

فالأكل من الرزق مسبب عن المشي والسعي وأثر عنه، ولا يخفى أن الأمر بالمشي والأكل للإباحة^(١)، وفي قوله تعالى: ﴿فَاتَمَشُوا فِي مَنَازِلِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾ أمر بالتسبب والكسب.

قال ابن كثير: في الآية تذكير بنعمته تعالى على خلقه في تسخير له الأرض، وتذليله إياها لهم، بأن جعلها ساكنة لا تميد ولا تضطرب بما جعل فيها من الجبال، وأنبع فيها من العيون، وسلك فيها من السبل، وهياً فيها من المنافع، ومواضع الزرع والثمار.

والمعنى: سافروا حيث شئتم من أقطارها، وترددوا في أقاليمها وأرجائها في أنواع المكاسب والتجارات^(٢).

(٣) أنوار التنزيل، البيضاوي ٣٠٩/٥.

(٤) مدارك التنزيل، النسفي ٢٨٨/٢.

(١) غرائب القرآن، النيسابوري ٣٢٨/٦.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١٧٩/٨.

وقال في آية أخرى قال: ﴿كَرَامًا كَثِيرِينَ﴾ [الأنفطار: ١١] يعني: يكتبون أعمال العباد.

فالإحصاء والكتب يتشاركان في معنى الضبط^(١).

وهو بمعنى الحساب كما قال في آية أخرى: ﴿وَكُنْ بِمَنَاحِسِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]. وفي الآية توعّد وإشارة إلى ضبط أعمالهم من الحساب، وهو العد والإحصاء، والمعنى: أنه لا يغيب عنا شيء من أعمالهم، وقيل: هو كناية عن المجازاة، فالإحصاء: هو العد، وكانوا قديمًا يستخدمون الحصى أو النوى في العد، لكن النوى فرع ملكية النخل، فقد لا يتوفر للجميع؛ لذلك كانوا يستخدمون الحصى، ومنه كلمة الإحصاء^(٢).

قال الرازي قوله: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ المراد: أنه يوضع في هذا اليوم كتاب كل إنسان في يده إما في اليمين، أو في الشمال، والمراد الجنس، وهو صحف الأعمال^(٣).

فهؤلاء لما رأوا أعمالهم قد أحصيت عليهم، وكتبت في صحفهم تعجبوا، فقالوا: ﴿يَوَيْلَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ﴾ يعني: أنهم يقولون: إذا قرؤوا كتابهم، ورأوا ما قد كتب عليهم فيه من صفائر ذنوبهم وكبائرهم، نادوا

بالويل حين أيقنوا بعذاب الله، وضجوا مما قد عرفوا من أفعالهم الخبيثة التي قد أحصاها كتابهم، ولم يقدروا أن ينكروا صحتها^(٤).

فهم ﴿مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ [الكهف: ٤٩]. أي: خائفين مما في الكتاب من أعمالهم الخبيثة، وخائفين من ظهور ذلك لأهل الموقف فيفتضحون، وبالجمله يحصل لهم خوف العقاب من الحق، وخوف الفضيحة عند الخلق ويقولون: ﴿يَوَيْلَنَا﴾ ينادون هلكتهم التي هلكوها خاصة من بين الهلكات ﴿مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ وهي عبارة عن الإحصاء بمعنى: لا يترك شيئاً من المعاصي، سواء كانت صغيرة أو كبيرة، إلا وهي مذكورة في هذا الكتاب، وإدخال تاء التأنيث في الصغيرة والكبيرة على تقدير أن المراد الفعله الصغيرة والكبيرة ﴿إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ إلا ضبطها وحصرها^(٥).

وأفاد عطف الكبيرة على الصغيرة التسوية في الإحصاء بينها وبين الصغيرة، فالمراد أنه لا يدع شيئاً إلا أحصاه^(٦).

وهذا الضبط والإحصاء لا يخص أعمال بنى آدم، بل يتناول جميع الأشياء.

قال الله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي

(٤) جامع البيان، الطبري ٣٨/١٨.

(٥) مفاتيح الغيب، الرازي ٤٧٠/٢١.

(٦) تفسير ابن عرفة ٢٢٥/١.

(١) أنوار التنزيل، البيضاوي ٢٨٠/٥.

(٢) البحر المحيط في التفسير، أبو حيان ٤٣٦/٧.

(٣) مفاتيح الغيب ٤٧٠/٢١.

إِمَامُ مَيِّين ﴿يس: ١٢﴾.

والمراد بالكتاب جنس الكتاب؛ فيشمل جميع الكتب التي كتبت فيها أعمال المكلفين في دار الدنيا، وأن المجرمين يشفقون مما فيه أي: يخافون منه، وهذا المعنى الذي دلّت عليه الآية الكريمة جاء موضحاً في مواضع آخر من كتاب الله تعالى ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتُ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٣﴾﴾ [يس: ١٢].

فالمراد بـ ﴿مَا قَدَّمُوا﴾ ما عملوا من الأعمال قبل الموت، شبهت أعمالهم في الحياة الدنيا بأشياء يقدمونها إلى الدار الآخرة، كما يقدم المسافر ثقله وأحماله. وأما الآثار فهي آثار الأعمال، وليست عين الأعمال بقريئة مقابلته بـ ﴿مَا قَدَّمُوا﴾ مثل ما يتركون من خير، أو يثير بين الناس وفي النفوس، والمقصود بذلك ما عملوه موافقاً للتكاليف الشرعية، أو مخالفاً لها وآثارهم كذلك.

فالآثار مسببات أسباب عملوا بها، وليس المراد كتابة كل ما عملوه؛ لأن ذلك لا تحصل منه فائدة دينية يترتب عليها الجزاء، فهذا وعد ووعد كل يأخذ بحظه منه^(٤). وهذا بصريح معناه يفيد أيضاً كفاية عن وقوع الجزاء؛ إذ لولا الجزاء على الأعمال لكان الاعتناء بإحصائها عبثاً، وأجري على

أي: وبيننا كل شيء وحفظناه، في أصل عظيم يؤتم به، ويتبع ولا يخالف، وهو علمنا الأزلي القديم الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها^(١).

وقد بين الله تعالى أن هذا الإحصاء في كتاب، سهل يسير على الله تعالى، فقال تعالت كلماته: ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢].

أي: سهل لا يحتاج إلى معاناة من الله العلي الكبير، بل إنه سهل عليه سبحانه، وإن الحكم الفاصل يقع منه في ساعات أو لحظات^(٢).

والمقصود: أن من أثر العمل في الآخرة أن الله يحصيه على العبد، فلا يضيع منه شيء، حتى يندشش العبد من دقة الإحصاء والحفظ، فيقول: ﴿مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ والمراد بالاستفهام هنا مجرد التعجب من الكتاب في هذا الإحصاء الدقيق.

وعن قتادة قوله: ﴿مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ اشتكى القوم كما تسمعون الإحصاء، ولم يشك أحد ظلماً، فإياكم والمحقرات من الذنوب، فإنها تجتمع على صاحبها حتى تهلكه^(٣).

(١) تفسير المراغي ١٤٨/٢٢.

(٢) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٩/٥٠٢٦.

(٣) جامع البيان، الطبري ٣٨/١٨.

(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٥٦/٢٢.

الملائكة الموكلين بإحصاء أعمالهم أربعة أوصاف، هي: الحفظ، والكرم، والكتابة، والعلم بما يعلمه الناس، فقال: ﴿وَلَنْ عَلَيْكُمْ حَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كُنِينًا ۝١١ يِعْمُونَ مَا تَعْمَلُونَ ۝١٢﴾ [الأنعام: ١٠-١٢].

وابتدى منها بوصف الحفظ؛ لأنه الغرض الذي سيق لأجله الكلام الذي هو إثبات الجزاء على جميع الأعمال، ثم ذكرت بعده صفات ثلاث بها كمال الحفظ والإحصاء، وفيها تنويه بشأن الملائكة الحافظين^(١).

فالكرم صفتهم النفسية الجامعة للكمال في المعاملة وما يصدر عنهم من الأعمال، وأما صفة الكتابة فمراد بها ضبط ما وكلوا على حفظه ضبطاً لا يتعرض للنسيان ولا للإجحاف ولا للزيادة، فالكتابة مستعارة لهذا المعنى، على أن حقيقة الكتابة بمعنى الخط غير ممكنة بكيفية مناسبة لأمر الغيب.

وأما صفة العلم بما يفعله الناس فهو الإحاطة بما يصدر عن الناس من أعمال وما يخطر ببالهم من تفكير مما يراد به عمل خير أو شر وهو العلم.

وما تفعلون يعم كل شيء يفعله الناس وطريق علم الملائكة بأعمال الناس مما فطر الله عليه الملائكة الموكلين بذلك.

ودخل في ما تفعلون: الخواطر القلبية

لأنها من عمل القلب أي: العقل فإن الإنسان يعمل عقله ويعزم ويتردد، وإن لم يشع في عرف اللغة إطلاق مادة الفعل على الأعمال القلبية.

واعلم أنه يتتبع من هذه الآية أن هذه الصفات الأربع هي عماد الصفات المشروطة في كل من يقوم بعمل للأمة في الإسلام من الولاة وغيرهم فإنهم حافظون لمصالح ما استحفظوا عليه وأول الحفظ الأمانة وعدم التفريط^(٢).

٢. الإنباء بالعمل.

ومن أثر العمل في الآخرة أن الله ينبيء العبد بما عمله في الدنيا، قال الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

وقال: ﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: ١٤].

وقال: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

وقال: ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٤].

وقال: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَسَوْفَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المجادلة: ٦].

وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا

(١) المصدر السابق ٣٠/ ١٧٩.

(٢) المصدر السابق ٣٠/ ١٨٠.

موافق للعمل، وأعدل العدل أن يكون العقاب مأخوذاً من الجريمة نفسها، والله يتولى المحسنين^(٢).

فالنبا في لغة العرب: أخص من الخبر؛ لأن النبا لا يطلق إلا على الإخبار بشيء له شأن وخطب، فمعنى: ﴿يُنَبِّئُهُمْ﴾ أي: يخبرهم خبراً عظيماً عندهم له خطب، وشأن عظيم.

﴿يَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ «ما» موصولة، والعائد محذوف، والمعنى: بالذي كانوا يعملونه في دار الدنيا، وليس المراد بهذه التنبئة والإخبار مجرد التنبئة فقط، لا وكلا، بل المراد به: الجزاء؛ لأن كل إنسان يوم القيامة يخبر بجميع ما عمل من جهات متعددة:

تشهد على الكافر جوارحه، تشهد عليه يده ورجله وجلده، كما يأتي في قوله: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ﴾ [يس: ٦٥].

وكقوله: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَوُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ [فصلت: ٢٢].

وكقوله: ﴿وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا﴾ [فصلت: ٢١].

وينبئه ويشهد عليه المكان؛ لأن البقعة من الأرض الذي عمل الإنسان عليها المعصية تأتي يوم القيامة، وتشهد عليه عند ربها

فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن تَجْوَىٰ فَلَنَجْذِيَهُ إِلَّا هُوَ رَآيَهُمْ وَلَا خِمْسَهُ إِلَّا هُوَ سَادِ مُنْهُمْ وَلَا آدَنَ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ إِنَّمَا كَانُوا ثُمَّ يَنْبِئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ [المجادلة: ٧].

فقوله: ﴿يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يقول: فيوقفهم ويخبرهم بأعمالهم التي كانوا يعملون بها في الدنيا، ثم يجازيهم بها، إن كان خيراً فخييراً، وإن كان شراً فشرّاً، أو يعفو بفضله، ما لم يكن شركاً أو كفراً^(١).

والتعبير بـ ﴿ثُمَّ﴾ للدلالة على البعد الزمني في نظرهم، والبعد بين ما زين لهم من الشر، وما يستقبلهم من جزاء؛ وفاقاً لما عملوا من شر وقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ تَرْجِعُهُمْ﴾ فيه تقديم الجار والمجرور على ربهم للدلالة على الاختصاص أي: المرجع إلى الله وحده، وهو الذي يتولى جزاءهم على ما قدموا من شر، والتعبير بـ ﴿رَبِّهِمْ﴾ إشارة إلى كفرهم بالنعم التي أولاهم؛ إذ إنه هو الذي خلقهم ورباهم ونماهم وأمدهم بآلائه من وقت أن كانوا أجنة في بطون أمهاتهم إلى أن رمسوا في قبورهم.

والنبا: الخبر الخطير ﴿يُنَبِّئُهُمْ﴾ أي: يخبرهم بما كانوا يعملون، وهو إنباء مقترن بالجزاء، فهو إنباء بأعمالهم وجزائها، فيجزون ما كانوا يعملون، أي: أن الجزاء

(١) جامع البيان، الطبري ٣٧/١٢.

(٢) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٥/٢٦٢٦.

وتقول البقرة: إن فلان بن فلان فعل علي كذا وكذا في ساعة كذا في يوم كذا في شهر كذا في سنة كذا، كما يأتي في قوله: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَنْفُسَهَا ۝٢ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُخْبِثُ ۝٤﴾ يعني: الأرض ﴿تُخْبِثُ أَخْبَارَهَا﴾ بما فعل عليها ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥﴾ [الزلزلة: ١-٥].

أمرها بذلك أن تشهد، ومن ذلك وهو الشيء العظيم أن كل إنسان يجد جميع ما قدم من خير وشر مكتوباً في كتاب ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ مُلَاحِظًا﴾ [الكهف: ٤٩]. ويقال لكل إنسان في ذلك الوقت: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤].

وتلك الكتب تعطى للناس، آخذ كتابه يمينه، أو آخذ بشماله، أو من وراء ظهره، والعياذ بالله.

وهذه الآيات معناها: اعلم أيها الإنسان أن كل ما عملت من خير وشر هو محفوظ لك مدخرٌ عليك، إن كان خيراً فإنما تنفع به نفسك، وإن كان شراً فإنما تضر به نفسك، فعليك أن تتجهّد في دار الدنيا وقت إمكان الفرصة، ولا تضيع الوقت؛ لأنه إذا ضاع الوقت ندم الإنسان حيث لا ينفع الندم، فعلينا معاشر المسلمين أن نعلم أن ربنا يخبرنا أن

جميع ما عملنا سنجده محفوظاً لنا أمامنا على رؤوس الأشهاد ونخبر به، ونجازي به، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه. فيجب على العبد المسلم في دار الدنيا أن يلاحظ هذا، وأن يخاف الله، ويخشى من أن يجعل في صحيفته الفضائح التي يفتضح بها على رؤوس الأشهاد؛ لأن فضيحة يوم القيامة ليست كفضيحة الدنيا؛ لأن من افتضح في الدنيا ضاع عرضه أمام المجتمع، وهو صحيح يأكل ويشرب وينام وينكح ويركب، ولكن من افتضح في الآخرة سيجر إلى دركات النار - والعياذ بالله جل وعلا - ففضيحة الآخرة على رؤوس الأشهاد أعظم ^(١).

والمقصود: أن من أثر العمل في الآخرة أن يظهره الله للعبد، كما قال: ﴿يَلْبِثُ فِيهَا كَأَوْ يَمْلُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

يعني: يظهرها لهم في صورتها الحقيقية حتى يعلموا حقيقة ما كانوا عليه في الدنيا، وأنها إنما زينت لهم هذه المعاصي، وهذا هو سبب عدم توبة أكثر الناس؛ لأنهم يرون الأشياء على غير حقيقتها، كما قال تبارك وتعالى: ﴿رَبِّكَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ﴾ [التوبة: ٣٧].

(١) العذب النмир من مجالس الشنيطي في التفسير ١٠٤/٢.

وقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨].

وهذا كحال الكافر والمبتدع، فأحدهما يرى الشيء القبيح حسناً، فإذا رآه حسناً هل يتصور أنه يتوب منه؟ لا يتصور؛ لأنه يراه حسناً؛ ولذا لن يفكر في التوبة، فمن ثم قال بعض السلف: ليس لصاحب بدعة توبة، بمعنى: أنه يستحسن البدع، ويراها بصورة حسنة، فكيف يتوب؟ فمن ثم لا ترجى له توبة، بخلاف العاصي فإن أمره أخف؛ لأن العاصي، الموحد يرى معاصيه فيغضها، لكن الهوى يغلبه فمن ثم يرجى له التوبة، أما المبتدع فقد زين له سوء عمله فرآه حسناً. فأمر العباد مفوض إلى الله تعالى، وإن الله تعالى عالم بأحوالهم، مطلع على ضمائرهم، ورجوعهم يوم القيامة إلى الله، فيجازي كل أحد بمقتضى عمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

٣. المجازاة على العمل.

ومن أثر العمل في الآخرة أن يجزي الله العباد بأعمالهم.

قال الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

وقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي

كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٧].

وقال: ﴿فَلَنُدِّيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْرَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٧].

قال الطبري: يقول: يجزيهم أجرهم في الآخرة بأحسن ما كانوا يعملون^(١). أي: ولنعطينهم في الآخرة أجرهم الخاص بهم، بما كانوا يعملون من الصالحات، وإنما أضيف إليه الأحسن للاشعار بكمال حسنه، كما سبق في حق الصابرين^(٢).

واللام هي الموطئة أي: لنجزيهم بسبب صبرهم على ما نالهم من مشاق التكليف وجهاد الكافرين، والصبر على ما ينالهم منهم من الإيذاء بأحسن ما كانوا يعملون من الطاعات.

قيل: وإنما خص أحسن أعمالهم لأن ما عده وهو الحسن مباح، والجزاء إنما يكون على الطاعة. وقيل: المعنى: ولنجزيهم بجزاء أشرف وأوفر من عملهم، أولنجزينهم بحسب أحسن أفراد أعمالهم، على معنى لنعطينهم بمقابلة الفرد الأدنى من أعمالهم المذكورة ما نعطيهم بمقابلة الفرد الأعلى منها من الجزاء الجزيل، لا أنا نعطي الأجر بحسب أفرادها المتفاوتة في مراتب الحسن، بأن نجزي الحسن منها بالأجر الحسن،

(١) جامع البيان، الطبري ١٧/ ٢٩٣.

(٢) روح البيان، إسماعيل حقي ٥/ ٧٨.

والأحسن بالأحسن كذا قيل^(١).

والمقصود: أن يوم القيامة يوم جزاء الأعمال ولهذا قال: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: من عمل صالح الأعمال، وأدى فرائض الله التي أوجبها عليه، وهو مصدق بشوابه الذي وعد به أهل طاعته، وبعقاب أهل المعصية على عصيانهم، فلنحيينه حياة طيبة تصحبها القناعة بما قسم الله له، والرضا بما قدره وقضاه؛ إذ هو يعلم أن رزقه إنما حصل بتدبيره، والله محسن كريم لا يفعل إلا ما فيه المصلحة، ويعلم أن خيرات الدنيا سريعة الزوال، فلا يقيم لها في نفسه وزناً، فلا يعظم فرحه بوجودها، ولا غمه بفقدانها^(٢).

فهو سبحانه يجزي في الآخرة أحسن الجزاء، ويثاب أجمل الثواب، جزاء ما قدم من عمل صالح، وتحلى به من إيمان صادق. أما من أعرض عن ذكر الله فلم يؤمن، ولم يعمل صالحاً فهو في عناء ونكد؛ إذ يكون شديد الحرص والطمع في الحصول على لذات الدنيا، فإن أصابته محنة أو بلاء استعظم أمره، وعظمت أحزانه، وكثر غمه وكدره، وإذا فاتته شيء من خيراتها عبس

وبسر، وامتلاً قلبه أسى وحسرة؛ لأنه يظن أن السعادة كل السعادة.

قال سيد: وبمناسبة العمل والجزاء يعقب بالقاعدة العامة فيهما: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فيقرر بذلك القواعد التالية: أن الجنسين الذكر والأنثى، متساويان في قاعدة العمل والجزاء، وفي صلتها بالله، وفي جزائهما عند الله، ومع أن لفظ: ﴿مَنْ﴾ حين يطلق يشمل الذكر والأنثى إلا أن النص يفصل ﴿مَنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ﴾ لزيادة تقرير هذه الحقيقة؛ وذلك في السورة التي عرض فيها سوء رأي الجاهلية في الأنثى، وضيق المجتمع بها، واستياء من يبشر بمولدها، وتواريه من القوم حزناً وغماً وخجلاً وعاراً! وأن العمل الصالح لا بد له من القاعدة الأصلية يركز عليها، قاعدة الإيمان بالله ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بغير هذه القاعدة لا يقوم بناء، وبغير هذه الرابطة لا يتجمع شتاته، إنما هو هباء كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف.

والعقيدة هي: المحور الذي تشد إليه الخيوط جميعاً وإلا فهي أنكاث، فالعقيدة هي التي تجعل للعمل الصالح باعثاً وغاية، فتجعل الخير أصيلاً ثابتاً يستند إلى أصل كبير، لا عارضاً مزعزغاً يميل مع الشهوات

(١) فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٢٢٩.

(٢) تفسير المراغي ١٤/ ١٣٨.

أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾

[البقرة: ٨١].

وقال: ﴿أُولَئِكَ مَا لَهُمْ النَّارُ بِمَا

كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [يونس: ٨].

وقال: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكَيْتَ وَجْهُهُم

فِي النَّارِ هَلْ يُخْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ

﴿٩٠﴾﴾ [النمل: ٩٠].

فهذه الآيات جميعها تبين أن من أثر العمل يوم القيامة دخول الجنة أو النار، فدخلولهما مرتبط بالأعمال، فمن عمل خيراً نال خيراً، ومن عمل سوءاً يجزى به والجزاء يوم ذاك ما هو إلا جنة أو نار.

٥. النجاة من عذاب القبر أو الوقوع فيه.

ومن آثار العمل في الآخرة النجاة من عذاب القبر أو الوقوع فيه.

قال تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ

صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الروم: ٤٤].

قال بعض السلف: في القبر.

يعني: أن العمل الصالح يكون مهاداً لصحابه في القبر، حيث لا يكون للعبد من متاع الدنيا فراش، ولا وساد، ولا مهاد، بل كل عامل يفتش عمله، ويتوسده من خير أو شر (٢).

والمقصود: أن للعمل أثراً في الآخرة، سواء كان صالحاً أو سيئاً، فينبغي للعبد

(٢) تفسير ابن رجب الحنبلي ٢/ ٧٦.

والأهواء حيث تميل، وأن العمل الصالح مع الإيمان جزاؤه حياة طيبة في هذه الأرض، لا يهم أن تكون ناعمة رغدة ثرية بالمال، فقد تكون به، وقد لا يكون معها، وفي الحياة أشياء كثيرة غير المال الكثير تطيب بها الحياة في حدود الكفاية: فيها الاتصال بالله، والثقة به، والاطمئنان إلى رعايته وستره ورضاه، وفيها الصحة والهدوء والرضا والبركة، وسكن البيوت، ومودات القلوب، وفيها الفرح بالعمل الصالح وآثاره في الضمير، وآثاره في الحياة، وليس المال إلا عنصراً واحداً يكفي منه القليل، حين يتصل القلب بما هو أعظم وأزكى وأبقى عند الله، وأن الحياة الطيبة في الدنيا لا تنقص من الأجر الحسن في الآخرة، وأن هذا الأجر يكون على أحسن ما عمل المؤمنون العاملون في الدنيا، ويتضمن هذا تجاوز الله لهم عن السيئات، فما أكرمه من جزاء! (١).

٤. دخول الجنة أو النار.

قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَوْفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةَ

طَائِفِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا

كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [النحل: ٣٢].

وقال: ﴿وَنُودُوا أَنْ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا

بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣].

وقال في الفريق الآخر: ﴿بِكُلِّ مَنْ كَسَبَ

سَيِّئَةً وَأَحْطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢١٩٣.

أن يكثر من العمل الصالح، ويخلصه من الآفات والمحبطات، نسأل الله الكريم أن يوفقنا للعمل الصالح، وأن يفعل ذلك بأهلينا وذريتنا ومحبينا.

موضوعات ذات صلة:

الإخلاص، الإيمان، الجزاء، الحساب، السعي، الكسب